

# سِرِّ افق الانظار



الشيخ د. ميثم السامان

إشراف وتقديم

مركز الدراسات التخصصية في الإسلام والملة

# سِرِّاقَةُ الْإِنِّظَارِ

الشيخ مَيْثَمُ السَّامَانِ

إِشْرَافٌ وَتَقْدِيمٌ



مَرْكَزُ الدَّارِ السَّائِدَةِ لِلتَّحْقِيقِ وَالتَّحْقِيقِ الْأَعْلَى الْمَهْدِيِّ

مركز الدراسات التخصصية في الإمام المهدي

اسم الكتاب: ..... سراق الانتظار  
تأليف: ..... الشيخ ميثم السلامان  
إشراف وتقديم: ..... مركز الدراسات التخصصية في الإمام المهدي  
رقم الإصدار: ..... ٢٤٦  
الطبعة: ..... الأولى ١٤٤٧ هـ  
عدد النسخ: ..... طبعة محدودة

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للمركز  
العراق- النجف الأشرف  
هاتف: ٠٧٨١٦٧٨٧٢٢٦  
www.m-mahdi.com  
info@m-mahdi.com



بسم الله الرحمن الرحيم

### مقدمة المركز:

الحمد لله تعالى الذي جعل الرجاء بظهور وليه الحجة عليه السلام قبساً يضيء دروب المستضعفين، وركناً من أركان الوعي الذي يحفظ للغيب قداسته وللعقل مكانته، والصلاة على محمد وآله الطاهرين، منار الهدى ومصابيح الدجى.

يقدم مركز الدراسات التخصصية في الإمام المهدي عليه السلام للقارئ الكريم هذا الكتاب القيم: (سراق الانتظار).

وهو دراسة تناول واحدة من أخطر قضايا الوعي الديني المعاصر، وهي قضية تشويه الانتظار، وسرقة المعنى المقدس، وتحويل المهدوية من مشروع روحي إلى سلطة نفسية وتنظيمات مغلقة. لقد عاش المجتمع في العقود الأخيرة موجة من التيارات التي تستغل حرارة الإيمان وشوق الناس إلى العدل الإلهي، وتتغذى على الغموض وتعيش على تزييف الوعي، متسرة بشعارات الخلاص والرجاء.

وهنا تتجلى الحاجة الملحة إلى دراسات تحليلية قادرة على تمييز المهدوية الأصيلة من النسخ المشوهة التي تتطفل على الوجدان الديني وتستخدم الغيب أداة للهيمنة والانقياد.

وقد بذل المؤلف سماحة الشيخ ميثم السلمان البحراني، جهداً معرفياً لافتاً في تتبُّع جذور هذه الظاهرة، وتحليل بنيتها النفسية والعقلية والاجتماعية، وفضح الآليات التي تعتمدها التنظيمات السرية في صناعة الطاعة، وتشكيل العزلة، وهندسة الولاء، وتحويل النصوص الدينية من منارات للهداية إلى أدوات للتبرير والسيطرة. فهو لم يكتفِ بقراءة ظاهر الدعوى، بل يغوص إلى عمقها، ليكشف منطق الانحراف، وسيكولوجيا القائد والمريد، ولغة الرمز، واقتصاد الولاء، ومعادلات الوعي التي تنهاوى حين يصبح الغيب مطيةً للسلطة لا سُلماً للحق.

وإنَّ مركز الدراسات، إذ يضع هذا العمل بين أيدي القُرَّاء الكرام، يُؤكِّد رسالته في بناء وعي مهديٍّ سليم، كما يُجدِّد دعوته إلى جميع الباحثين والمهتمين بالشأن المهدي - من علماء، ومفكرين، وطلبة علم، وباحثين شباب - لتقديم نتائجهم العلمية والتحليلية، لعرضها على اللجنة العلمية، ومن ثمَّ، المساهمة في طباعتها ونشرها. نسأل الله تعالى أن يجعل هذا الكتاب لبنةً مضيئةً في بناء الوعي المهدي، وأن يحفظ ويُبعد شيعة أهل البيت عن كلِّ انحراف وتشويه، ببركة بقية الله في أرضه، الإمام الحجَّة بن الحسن عليه السلام.

مركز الدراسات التخصصية

في الإمام المهدي عليه السلام

المقدمة



(سُرَّاقُ الانتظار)<sup>(١)</sup>، عبارةٌ تختزل ظاهرةً اجتماعيةً ودينيةً معقدةً، تتجسّد في نشوء جماعاتٍ سرّيةٍ تدّعي الاتّصال المباشر بالإمام المهدي عليه السلام، وتتخذ من العقيدة المهدوية غطاءً لبناء منظوماتٍ مغلقةٍ تمارس العمل في الخفاء، وتُعيد تشكيل الإيمان في قوالبٍ تنظيميةٍ صارمةٍ تُخضع الأتباعٍ لطاعةٍ مطلقةٍ لمُدّعي الاتّصال بالغيب.

هذه الجماعات لا تُقدّم نفسها بوجهٍ صداميٍّ أو دينيٍّ متشدّدٍ، بل تظهر بخطابٍ إنسانيٍّ ناعمٍ رحيمٍ، تتحدّث عن المحبّة، والسلام، والعدالة، وحقوق الإنسان، ورعاية الفقراء، والاهتمام بالبيئة، وتمكين المرأة. تتزيّن بمفرداتٍ جذّابةٍ وتتبنّى لغةً عاطفيةً تُخاطب وجدان الناس وتلامس حاجاتهم المعنوية، فتبدو كأنّها جماعاتٌ تجديّد ثقافيٍّ، وإصلاح اجتماعيٍّ أو روحيٍّ تعمل من أجل التقدّم والخير العامّ، بينما تُخفي في داخلها منظومةً غير مرئيةٍ مغلقةٍ تُدار بتوجيهاتٍ سرّيةٍ وتستمدُّ شرعيّتها من زعم الاتّصال المباشر بالإمام المهدي عليه السلام.

تتحرك هذه التنظيمات غالباً تحت غطاءٍ منظمات المجتمع المدني، فتُنشئ جمعياتٍ أو مراكزٍ ثقافيةً أو مؤسساتٍ خيريةً، وتبني لنفسها حضوراً علنياً يُوفّر لها الحماية القانونية والاجتماعية. غير أنّ هذا

---

(١) مصطلح ورد على لسان العلامة السيّد عبد الله الغريفي، ومن باب الأمانة العلمية والأدبية اقتضى التنويه.

الوجود العلني ليس إلا واجهةً لأجندة خفيّة شديدة التنظيم؛ إذ تعتمد الجماعة على مبدأ ازدواجيّة الخطاب: خطابٌ ظاهرٌ موجّه إلى المجتمع يتحدّث بلغة الانفتاح والرحمة والخدمة، وخطابٌ داخليٌّ مخصّصٌ للاتباع يُؤسّس لفكرة الوصاية الروحيّة والاتّصال المباشر بالإمام، ويجعل من (مدّعي الاتّصال بالغيب) وسيطاً بين الإمام المهدي عليه السلام والناس.

ولأنّها تُدرك خطورة الكشف عن عقيدتها الخفيّة، فإنّها تعتمد إلى إثارة الفوضى الذهنيّة حول فكرها ومنطلقاتها، فتغرق الفضاء العامّ برسائل متناقضةٍ ومفرداتٍ رمزيّةٍ مبهمّةٍ تُحدّث تشويشاً في الوعي الجمعي، وتمنع تكوين صورة واضحةٍ عنها. هذا الغموض ليس عرضاً جانبياً، بل سياسةٌ مقصودةٌ تُمارَس لتأمين الغطاء النفسي والعملي لاستمرار التنظيم.

تبدأ عمليّة الاستدراج عادةً بخطابٍ وجدانيٍّ رقيقٍ يدعو إلى التأمل والإصلاح الداخلي، ثمّ يُنقل العضو تدريجياً إلى دائرةٍ مغلقةٍ من الطاعة والتكليف الخاصّ. ومع مرور الوقت، يُعاد تشكيل وعيه بطريقةٍ تجعله يرى في مدّعي الاتّصال بالغيب تجسيدا للولاية، وفي الانتماء للجماعة السريّة طريقاً للخلاص، فيفقد تدريجياً استقلاله الفكري وحرّيته الشخصيّة وقدرته على اتّخاذ القرار.

هكذا يتحوّل من فردٍ حرٍّ قادرٍ على التفكير إلى تابعٍ مطيعٍ لا يملك سوى ترديد ما يُملئ عليه باسم الحُبِّ والصفاء والتمهيد. ولأنّ

هذه البنى التنظيمية تُتقن إدارة المشاعر، فإنها تُغذي في الأتباع شعوراً بالتفرد والنقاء، وتزرع فيهم قناعة بأنهم (الخاصة) الذين يحملون سرّ الظهور، وتُبرّر لهم كتمان معتقدتهم أمام الآخرين على أنه (سترٌ للسر) و(حفظٌ للأمانة). بهذه الطريقة تُعاد صياغة العلاقة بين الفرد والعالم: يُصبح الخارج موضع شكّ، والمجتمع العامّ فضاءً ملوثاً، والجماعة وحدها ملاذاً آمناً.

إنّ دراسة هذه الظاهرة لا تتصل بالجانب العقائدي في ذاته، بل بالجانب المنهجي والتنظيمي والنفسي للتنظيمات السريّة للجماعات المهدويّة المنحرفة. فالمسألة ليست في أصل الإيمان بالإمام المهدي عليه السلام أو بالغيب، بل في الآليات التي تُحوّل هذا الإيمان إلى وسيلة استتباع وتنميطٍ للعقول، وفي الطريقة التي تُستعمل بها الرمزيّة الدنيّة لتوليد الخضوع المعنويّ التام، وإلغاء السؤال النقديّ، وتبديل معنى الطاعة من التزام عقلائيّ إلى تسليم شخصيّ.

إنّ عبارة (سراق الانتظار) تُعبّر عن هؤلاء الذين لا يُنكرون الأمل بل يستغلّونه، ولا يهاجمون الإيمان بل يملكون مفاتيحه، فيحوّلون الانتظار من مشروع إنسانيّ مفتوح إلى نظام مغلقٍ سريّ يتعبّد فيه الأعضاء بالطاعة العمياء لباب المولى وأحمد الحسن ومن شاكلهم.

وهذا الكتاب لا يتناول العقيدة المهدويّة في بعدها الإيماني، ولا يبحث في مقامات الغيب أو حقائق الوعد الإلهي، بل يُمثّل إثارة بحثيّة

١٠ ..... سُراقُ الانتظار

لمحاولة فهم البنى النفسية والاجتماعية والتنظيمية لهذه الجماعات السرية، من حيث: سياسات التموقع المجتمعي التي تعتمدها، والآليات التي تضبط بها وعي الأعضاء في التنظيم، وأساليبها في هندسة الفكر، وبناء نظام الهوية، وغسل الدماغ، والاحتضان العاطفي، والاستدراج النفسي لضحاياها. إنه محاولة لفهم كيف تُبنى المنظومات المغلقة في بيئة دينية، وكيف تتحول الفكرة المقدسة إلى أداة للهيمنة على الوعي باسم القداسة ذاتها.

\* \* \*

التوطئة:

سُرَّاق الانتظار بين المسيحانية والمهدوية

قراءة في سرقة المعنى المقدَّس



منذ أن أدرك الإنسان هشاشته أمام التاريخ، ووعى أن العدل الكامل لا يتحقق في زمانٍ محدودٍ ولا في نظامٍ بشريٍّ قاصرٍ، أدرك أيضاً أن عقيدة الخلاص بوصفها وعداً يتجاوز حدود الجغرافيا والدين. فالإحساس بالظلم يُولد توقفاً إلى العدالة، والعدالة الموعودة تتحوّل إلى صورة للمنقذ الذي يأتي من وراء الغيب. هذه البنية الوجدانية تُشكّل القاسم المشترك بين المسيحية والإسلام، حيث يتجسّد الأمل في شخص السيد المسيح ﷺ أو في الإمام المهدي ﷺ، وكلاهما يُمثّل استمرار الوعد الإلهي بعد أن يعجز التاريخ عن إصلاح ذاته. غير أن ما جرى في مسيرة الأديان ليس انتظاراً دائماً للحق، بل توالت على هوامش هذا الإيمان حركات وجماعات سرقت المعنى الإلهي، واستبدلت الانتظار الصادق بانتظارٍ مصطنعٍ تحكّمه الرؤى الشخصية والطموحات السلطوية.

سرقة الانتظار ليست حدثاً عرضياً، بل هي تحوّل في طبيعة العلاقة بين الإنسان والغيب. ففي الوعي الديني الأصيل، الغيب مجالٌ للتسليم بالعقل، لا للتعطيل. الغيب ليس نفيّاً للمعرفة، بل هو توسيع لها لتشمل ما وراء المحسوس. أمّا عند سُراق الانتظار، فإن الغيب يُجترل إلى نافذة شخصية يُطلُّ منها الدجال على ضمائر الناس، ويدّعي

أنَّه حامل مفاتيح الغيب أو الواسطة إلى المخلَّص. وهكذا تبدَّل العلاقة من الإيمان بالغيب إلى استعباد الناس باسم الغيب.

في التاريخ المسيحي، وُلِدَت هذه السرقة منذ القرون الأولى. فبعد أن رفع الله السيِّد المسيح ﷺ سنة ثلاث وثلاثين للميلاد، واشتدَّ اضطهاد الرومان لأتباعه، بدأ بعضهم يُفسِّر الوعود الإنجيلية عن المجيء الثاني تفسيراً مادياً عاجلاً. ومع مرور الزمن تحوَّلت فكرة العودة إلى ساحةٍ مفتوحةٍ للدعاوى الفردية. في القرن الثاني الميلادي ظهر (مونتanos) في فريجية من آسيا الصغرى، مدَّعياً أنَّ الروح القدس قد حلَّ فيه، وأنَّه الناطق باسم المسيح، ودعا الناس إلى الزهد المتطرّف والعزلة انتظاراً للمجيء القريب. كانت دعوته انعكاساً لأزمة روحية عميقة: حين يغيب الوحي الحقيقي، يملأ الإنسان الفراغ بادّعاء أنَّه امتداد له. إنَّ العقل الفلسفي يُفسِّر هذه الظاهرة على أنَّها محاولة لتبرير الظمأ إلى الغيب بادّعاءات التمثيل والحلول الشخصي، أي نقل الوعد من السماء إلى الجسد، ومن المطلق إلى الفرد.

ثمَّ في القرن السادس عشر الميلادي، حين كانت أوروبا تتقلَّب في صراعات الإصلاح الديني، ظهر في مدينة ميونخ الألمانية رجلٌ اسمه يوهان لايدن، أعلن نفسه ملكاً على (صهيون الجديدة)، وزعم أنَّه المخلَّص الموعود وأنَّ عصر المسيح الأرضي قد بدأ. أسَّس جمهورية دينية، جمع فيها بين العنف المقدَّس والتأويل المنحرف، وانتهى مقتولاً عام (١٥٣٦م) بعد أن حاصرته الجيوش الألمانية.

التوطئة: سُراق الانتظار بين المسيحية والمهدوية (قراءة في سرقة المعنى المقدس)..... ١٥

في منطقته الداخلي، كان يعتقد أنه امتداد لوعده المسيح، لكنه في جوهره كان يُعيد إنتاج الحلم ذاته الذي سبقه إليه فرعون حين قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ (النازعات: ٢٤). إنَّ العقل، حين يفقد معيار الحقائق العليا التي لا تخضع للحواس، يُسوِّغ لنفسه أن يُصبح المعيار. هذه الحركات المسيحية المتطرفة لم تتوقَّف عند العصور الوسطى. ففي القرن العشرين ظهرت حركات أكثر تنظيماً، استثمرت العاطفة الدينية والخيبة الحضارية معاً. من أبرزها حركة (الكنيسة الموحدة) التي أسَّسها الكوري الجنوبي صن ميونغ مون عام (١٩٥٤م)، وادَّعى أنه المخلص الحقيقي الذي أوكلت إليه مهمة استكمال رسالة المسيح التي فشلت في تحقيقها الكنيسة. لقد جمع في دعواه بين اللاهوت والسياسة، فحوَّل العقيدة إلى مشروع تجاريٍّ ووسيلةٍ لبسط النفوذ الروحي والاقتصادي، إلى أن تُوفي سنة (٢٠١٢م) تاركاً وراءه إمبراطوريةً ماليةً ضخمة. لم يكن ادِّعاؤه إلا صورةً حديثة لسرقة الانتظار القديمة، لكن بأدواتٍ تتناسب مع العصر: الإعلام، المال، والتنظيم الجماهيري.

وفي السياق ذاته، قدَّم القرن العشرون نموذجاً مأساوياً آخر هو (جيم جونز) مؤسس جماعة (معبد الشعب) في الولايات المتحدة. بدأ خطابه في الخمسينيات بالمطالبة بالمساواة ومحاربة العنصرية، ثم تطوَّر إلى دعوى الإلهام الإلهي والوصال بالمسيح. أقام مستعمرة دينية في غيانا، انتهت عام (١٩٧٨م) بانتحار جماعيٍّ مروَّع لأكثر من تسعمائة

من أتباعه بسمّ السيّانيد. لم يكن هذا الحدّث مأساة دينيّة فحسب، بل مأساة فلسفيّة لأنّه كشف كيف يمكن للفكرة المخلصيّة أن تتحوّل، في غياب الضوابط العقليّة، إلى عبادةٍ للذات. فالعقل، حين يُستبعد من ميدان الإيمان، يتحوّل الإيمان إلى انفعالٍ يُدار بالغريزة والخوف.

إذا انتقلنا إلى الإسلام، نجد أنّ الفكرة المهدويّة تُمثّل في الوجدان الإمامي صورة الإمامة المستمرّة، لا بمعنى التشريع الجديد، بل بمعنى الحضور الإلهي في التاريخ من خلال إنسانٍ كاملٍ يُقيم الحجّة ويُجسّد الحكمة الإلهيّة في العالم. الإمام المهدي عليه السلام هو البرهان العقلي على استمراريّة العناية الإلهيّة بالخلق. فكما أنّ الله لم يترك الأرض بلا نبيٍّ في مرحلة التشريع، لم يتركها بعد ختم النبوة بلا إمامٍ يحمل سرّ التوجيه ويُعدّ لليوم الموعود. هذا المفهوم لا يقوم على الخيال الغيبي بل على منطق فلسفيّ متين: إذ لا يمكن للعالم أن يستقيم في جوهره من دون مبدأٍ للتمام الإلهي، والعقل يحكم بضرورة وجود مَنْ يُمثّل الكمال الممكن في نظام الوجود الإنساني.

لكنّ سُراقُ الانتظار في البيئة الإسلاميّة لم يكتفوا بتشويه هذه الفكرة، بل حولوها إلى سلعةٍ سياسيّة وعاطفيّة. ففي القرن الرابع الهجري، ظهرت حركة القرامطة التي نسبت نفسها إلى المهدويّة، فاستغلّوا تلك العقيدة لتبرير تمردهم على الخلافة العبّاسيّة، وانتهوا إلى ممارساتٍ عنيفةٍ بلغت ذروتها بهجومهم على مكّة سنة (٣١٧هـ) وسرقتهم الحجر الأسود. كانت تلك الحادثة أوّل تجلٍّ عمليٍّ لسرقة

التوطئة: سُراق الانتظار بين المسيحية والمهدوية (قراءة في سرقة المعنى المقدس)..... ١٧  
الانتظار، إذ تحوّلت الفكرة الروحية إلى ثورة مادية تستبيح المقدسات  
باسم المخلص.

ثمّ في القرن السادس الهجري ظهر المهدي بن تومرت في المغرب  
الأقصى، مؤسس دولة الموحّدين، الذي جمع بين الزهد والتكفير  
وادّعى العصمة والمهدوية. وقد بنى نظامه على تأليه الفكرة، إذ جعل  
طاعته شرطاً للإيمان، وعدّ معارضيهِ كُفّاراً بالمهدي الموعود.

من منظورٍ عقلي، هذا الانحراف يكشف كيف يتحوّل المبدأ  
الوجودي في الإمامة إلى أداة سلطوية حين يُنتزع من سياقه العقلي.  
فالإمامة عند الإمامية ليست منصباً سياسياً بل ضرورة وجودية، بينما  
المهدوية المسروقة تجعلها وسيلةً للهيمنة لا للبيان.

في العصر الحديث، حين تقدّمت وسائل الاتصال، وأثر هذا  
التقدّم على الدور المركزي للمرجعيّات الدنيّة الكبرى، نشأت جماعات  
جديدة تدّعي السفارة أو الاتصال بالإمام المهدي عليه السلام في الغيبة  
الكبرى. من أبرزها جماعة البياني في العراق مطلع القرن الحادي  
والعشرين، التي زعمت أنّ زعيمها أحمد الحسن وصيّ الإمام  
المهدي عليه السلام ويُمهد لظهوره. هذه الجماعة استخدمت وسائل حديثة في  
تسويق الدعوى: المنصّات الرقمية، الخطاب الروحي الغامض،  
والحديث عن الرؤى والكشوفات. لكنّها تشترك مع أسلافها في الخلل  
ذاته: مصادرة العقل وإلغاء المعيار الشرعي لصالح الخبر الشخصي.  
فالبرهان العقلي الذي يُميّز الدعوى الصادقة من الزائفة هو إمكانها في

نظام العلة والمعلول، أي توافقها مع سُنن الوجود لا مع انفعالات الأفراد. كلُّ دعوى اتّصالٍ بالغيب لا تستند إلى برهانٍ عقليٍّ أو نصٍّ قطعيٍّ فهي في حقيقتها نقضٌ للغيب لا تأكيد له، لأنَّ الغيب بما هو غيب لا يُنال بالمدعى، بل يُعرَف بالآية والعقل.

إنَّ سُراقُ الانتظار في الإسلام والمسيحية يشتركون في بنية معرفية واحدة: نزع الغيب من مقامه الوجودي وتحويله إلى تجربة نفسية خاصة. في الإلهيات الإمامية، الغيب ليس فراغاً معرفياً، بل هو الامتداد الأعلى للعقل، لأنَّ العقل في جوهره نورٌ متّصل بالعقل الكلي، وكلُّ معرفة حقيقية لا تُعارض الغيب بل تتغذّى منه. أمّا في الوعي المشوّه، فإنَّ الغيب يُصبح مرادفاً للسّرّ الشخصي والسلطة. لذلك نرى كلَّ مَنْ يدّعي وصلاً بالمخلص يسعى أولاً إلى مصادر العقول ثم احتكار التأويل، لأنَّ السلطة لا تستقرُّ إلا في الفراغ المعرفي.

تتجلّى خطورة هذه السرقة في أثرها الأنثروبولوجي على الجماعة. فالمجتمع الذي ينتظر مخلصه الحقيقي يعيش حالة استعدادٍ أخلاقيٍّ وعقليٍّ للحق، بينما المجتمع الذي يتبع مخلصاً مزيفاً يتحوّل إلى جماعة مغلقة تعيش في وهم الاصطفاء. هذه الظاهرة يمكن تفسيرها فلسفياً بما يُسمّى (انعكاس الغيب على الذات)، أي إنّ الإنسان حين يفقد القدرة على إدراك اللامحدود يحاول أن يستعيده بتضخيم ذاته. وهكذا يُولّد (السارق المقدّس): إنسانٌ عاديٌّ يرى في نفسه صورة المطلق، فيدّعي أنّه ناطقٌ باسم الله أو خليفةً عن الغائب.

التوطئة: سُراق الانتظار بين المسيحية والمهدوية (قراءة في سرقة المعنى المقدس)..... ١٩

في عام (١٩٧٩م)، شهد العالم الإسلامي حادثة أعادت هذا النمط إلى الواجهة حين اقتحم جهيمان العتيبي المسجد الحرام في مكة المكرمة مدّعيًا أنّ صهره محمد بن عبد الله القحطاني هو المهدي المنتظر. كانت الحادثة استمراراً للمنطق ذاته الذي حكم تجارب المسيحية المنحرفة، حيث يمتزج الإحباط السياسي بالخيال الديني ليُنتج انفجاراً دموياً باسم الغيب. انتهت الحادثة بعد أسبوعين بمقتل القحطاني واعتقال جهيمان وإعدامه عام (١٩٨٠م)، لكنّها كشفت عن هشاشة الوعي الديني حين يُفصل عن العلم والعقل. فالدعوى المهدوية هنا لم تكن إلا انعكاساً لاحتقانٍ نفسيٍّ واجتماعيٍّ، لا برهاناً على صدق الوعد.

إنّ استقراء هذه النماذج يُظهر أنّ سُراق الانتظار عبر العصور، من مونتanos في القرن الثاني إلى جهيمان في القرن العشرين، يُشكّلون سلسلةً واحدةً في منطقتها، مختلفةً في أدواتها. جوهرها واحد: تحويل الوعد الإلهي إلى ملكٍ شخصيٍّ أو مشروعٍ سلطويٍّ. ولو نظرنا إليها بعيون الفلسفة، لوجدنا أنّ كلّ واحدٍ منهم حاول أن يضع حدّاً للزمن المقدّس، أن يختصر المسافة بين الحاضر والغيب، في حين أنّ الانتظار الحقّ هو بقاء العقل مفتوحاً على الغيب دون أن يدّعي امتلاكه.

إنّ البرهان العقلي على بطلان هذه الدعاوى يقوم على مبدئين:  
الأوّل: أنّ الغيب بما هو غيب لا يمكن أن يتجلّى في دعوى بلا شاهدٍ موضوعيٍّ أو نصٍّ قطعيٍّ، وإلاّ انتقض تعريف الغيب ذاته.

والثاني: أنَّ الإمامة المهدويَّة، بحسب العقل الإمامي، هي استمرارٌ لسنخ النبوة في جهة الحجَّة، لا في جهة التشريع، وبالتالي لا يمكن لأحدٍ أن يدَّعي النيابة الخاصَّة أو الاتِّصال المباشر إلَّا إذا نُسخَ نظام الإمامة نفسه، وهذا محالٌ لأنَّ الغيبة الكبرى تعني انسداد طريق السفارة الخاصَّة ببيان صريح من الإمام الحجَّة عليه السلام. فكلُّ مَنْ يدَّعي بعد ذلك اتِّصلاً أو تفويضاً أو وصايةً فقد نقض أصل الإمامة.

إنَّ العقل الفلسفي يرى أن كلَّ دعوى تتناقض مع بنيتها الداخليَّة هي باطلة بالضرورة، لأنَّها لا تصمد أمام عدم التناقض. فإذا كانت الغيبة غيبةً بمعناها الوجودي، فادِّعاء رؤيتها علناً أو الاتِّصال بها في مقام السفارة الخاصَّة تناقض ذاتيٌّ، لأنَّ الغيبة في جوهرها ليست حجباً مكانياً بل حجباً عن الاختبار العامِّ.

ولذلك فإنَّ سُراق الانتظار في الإسلام والمسيحيَّة يشتركون في خرقهم للبنية المنطقيَّة للإيمان. فالإيمان يقوم على الجمع بين العقل والتسليم، بين الغيب والمعرفة، بينما هؤلاء يفصلون بينهما، فيحوِّلون التسليم إلى جهل والعقل إلى شكٍّ مريضٍ. ومن هنا كان خطرهم مضاعفاً: إذ لا يهدِّدون الدِّين من خارجه بل من داخله، لأنَّهم يسرقون لغته ورموزه ويستخدمونها ضده.

حين يُسلب الإنسان القدرة على التمييز بين الإلهام والوهم، تتكوَّن في داخله فجوة معرفيَّة يستثمرها السارق المقدَّس. فكلُّ حركة ادَّعت الاتِّصال بالغيب كانت في جوهرها ردٌّ فعل على أزمة عقليَّة قبل

التوطئة: سُرَّاق الانتظار بين المسيحية والمهدوية (قراءة في سرقة المعنى المقدس)..... ٢١

أن تكون أزمة إيمانية. العقل الذي يفقد الثقة بقدرته على الفهم يتحوّل إلى تابع يبحث عن منقذٍ يملأ الفراغ. لهذا السبب، ظهرت الحركات المهدوية والمسيحية في اللحظات التي كانت المجتمعات فيها تمرُّ بانكسارٍ حضاريٍّ أو سياسيٍّ أو روحيٍّ. ومن هنا يمكن القول: إنَّ سُرَّاق الانتظار ليسوا أبناء الدين، بل أبناء الفراغ الذي يتركه الدين حين يُفَرِّغ من بعده العقلي.

إنَّ التتبُّع الفلسفي لمسار هذه الحركات يكشف عن نمطٍ مكرَّرٍ في البنية النفسية لقاداتها. فكلُّ مدَّعٍ للوصال بالغيب يبدأ بنزعة إصلاحية، ثمَّ ينتقل إلى يقينٍ ذاتيٍّ مطلق، ثمَّ ينتهي إلى انفصالٍ عن الواقع والشرع والعقل معاً. إنَّ مونتanos في القرن الثاني، ويوهان لايدن في القرن السادس عشر، وصن ميونغ مون في القرن العشرين، وأحمد الحسن اليماني في القرن الحادي والعشرين، وُلِدُوا جميعاً في اللحظة نفسها من الوعي: حين تتحوّل القناعة بالإله إلى قناعةٍ بالنفس، وحين يُستبدل معيار الوحي بمعيار أحلام المنام.

الفكر الإمامي ينظر إلى هذا التحوُّل بوصفه انقلاباً على فلسفة الغيب. فالإمام المهدي ﷺ ليس فكرةً تجريديةً ولا طاقةً نفسيةً، بل وجودٌ واقعيٌّ مستور عن الحواسِّ، قائمٌ بالبرهان العقلي الذي يُثبِت لزوم الحجَّة في كلِّ عصر. فالوجود الإلهي في العالم لا يكتمل إلاَّ بوجود مَنْ يُعبِّر عنه في المجال الإنساني، وهذا ما يُسمِّيه الحكماء بـ (العقل الفعَّال) أو (الإنسان الكامل). إنَّ القول بغيبة الإمام لا يعني

غيابه من حيث الوجود عن العالم، بل غيابه ظاهرياً عن الإدراك العام. ومن هنا يظهر فساد كل دعوى ترى في الغيبة انقطاعاً تاماً، أو اتصلاً مكشوفاً. كلاهما نفي لمفهوم الغيب بوصفه مرتبة من مراتب الوجود بين الشهود والعدم.

يُظهر التأمل العقلي أنّ سُراق الانتظار في الديانتين قد أسقطوا البنية الماورائية على السطح التاريخي. فالمتقد، في نظرهم، ليس وعداً يتعالى على الزمان بل مشروعاً يمكن تحقيقه بالثورة أو بالمال أو بالرؤيا. وهكذا تُحتزل العدالة الإلهية إلى برنامجٍ سياسيٍّ أو تجربةٍ نفسيةٍ. غير أنّ العدل الذي وُعدت به الإنسانية ليس من صنف العدل القانوني ولا من جنس السلطة، بل هو اكتمال نظام الوجود في توازنه بين العقل والمحبة، بين الباطن والظاهر. لذلك فإنّ أيّ دعوى تُحوّل الغيب إلى سلطةٍ تُناقض فلسفته، لأنّ الغيب بطبيعته تحرُّرٌ من السيطرة، باعتباره إيماناً عاقلاً لا يقبل التناقض والانتحال المزيف.

لقد مثل جيم جونز في الغرب وجهاً نفسياً لما مثله جهيمان العتيبي في الشرق. كلاهما خرج من بيئة دينية متوترة، وكلاهما استخدم الخطاب المهدوي أو المسيحاني لتبرير ثورة على الواقع. لكنّ النتيجة في الحالتين كانت واحدة: مأساةٌ جماعيةٌ. في نوفمبر (١٩٧٨م)، أمر جيم جونز أتباعه بالانتحار الجماعي في غيانا بعد أن أقنعهم أنّ المسيح في صورته الجديدة وأنّ الموت الجماعي عبورٌ إلى الخلاص. وفي نوفمبر (١٩٧٩م)، اقتحم جهيمان المسجد الحرام مدّعياً ظهور المهدي. ما

التوطئة: سُراق الانتظار بين المسيحية والمهدوية (قراءة في سرقة المعنى المقدس)..... ٢٣

يفصل بين الحادثتين عامٌ واحدٌ فقط، لكنَّ الرابطَ بينهما واحد: سقوط العقل أمام سحر الكلمة الدنيوية حين تُنزع منها مرجعية البرهان. في الحالتين، كان الغيب أداةً للهروب من المسؤولية التاريخية لا وسيلةً للاتصال بالعقل الكلي.

العقل الفلسفي يبرهن أنَّ الإيمان بالغيب لا يمكن أن يقوم على التجربة الفردية، لأنَّ الغيب بما هو غيب لا يدخل في نطاق الحس، بل يُدرك بالمطابقة العقلية مع نظام الوجود. فمن يدعي الاتصال بالغيب عليه أن يُقدِّم برهاناً يتوافق مع القواعد الكلية للعقل والنص، لا مع مشاعره أو رؤاه. لذلك أقرَّ الأئمة عليهم السلام أنَّ الإمام لا يُعرف بالرؤيا بل بالعلم، ولا تُقام الحجَّة بالانفعال بل بالبرهان. كلُّ مَنْ تجاوز هذا المبدأ وقع في أسر الوهم.

إنَّ فلسفة الغيبة الكبرى تقوم على أساس عقلائيَّتين: إنَّ الله تعالى أوجب على ذاته أن لا تخلو الأرض من حجَّة، ولكنه لم يُوجب أن تكون ظاهرة. فإذا كانت الحجَّة ظاهرة في زمن النبي والأئمة السابقين، فهي في زمن الغيبة الكبرى باطنة، لأنَّ الامتحان يقتضي استقلال العقل عن الحس. فلو ظهر الإمام لكلِّ مَنْ يدعي وصله لبطل الامتحان وانتهى معنى الإيمان بالغيب. من هنا كان ادعاء الاتصال المباشر به إبطالاً للغرض الإلهي من الغيبة، لأنَّ الغيبة امتحانُ العقل، والسارق حين يدعي الوصال يلغيه.

ولعلَّ أخطر ما في سرقة الانتظار أنَّها تُعيد تعريف الإنسان. فبدل

أن يكون الإنسان كائناً باحثاً عن الكمال، يُصبح تابعاً لمن يدّعي الكمال. في الفلسفة الإمامية، الإنسان خُلِقَ ليكون قابلاً للاتصال بالعقل الفعّال عبر تركية النفس وتحرير الإرادة، لكنّ السارق يغلق هذا الطريق ويحتكره. إنّه يستبدل حركة الكمال الذاتي بالولاء الشخصي، فيتحوّل الدّين إلى طاعةٍ لشخصٍ لا لفكرة. بهذا المعنى يُصبح سُراقُ الانتظار أعداء الإنسان قبل أن يكونوا أعداء العقيدة، لأنّهم يسلبونه حرّيته الفكرية باسم الغيب.

التحليل الأنطولوجي لهذه الظاهرة يكشف أنّ كلّ ادّعاءٍ بالخلاص الفوري هو في الحقيقة رفضٌ للزمن. فالزمن في نظر الحكمة الإلهية ليس عدوّاً بل ميداناً للتكمّل. الغيب لا يُختصر في لحظة ظهورٍ أو معجزةٍ، بل هو انكشافٌ تدريجيٌّ للحقّ في التاريخ. لكنّ السارق يعجز عن الصبر أمام هذا الإيقاع البطيء، فيسعى إلى استعجال الوعد. فكلُّ استعجالٍ للغيب هو اعتراضٌ على نظام العلة والمعلول، لأنّ الظهور مشروطٌ بتحقيقِ عِلّله لا بالرغبة فيه.

تاريخياً، يمكن القول: إنّ القرن العشرين كان أكثر القرون إنتاجاً لسُراق الانتظار في الديانتين. فبعد الحروب العالمية وما خلفته من فراغٍ روحي، تكاثرت الجماعات التي بشرت بالمثلّص القريب.

في الغرب، انتشرت الكنائس الألفية التي تتحدّث عن معركة (هارمجدون) ونزول المسيح في فلسطين.

وفي الشرق ظهرت جماعاتٌ شيعيةٌ تدّعي تمهيد الظهور أو تتلقّى

التوطئة: سُرَّاق الانتظار بين المسيحية والمهدوية (قراءة في سرقة المعنى المقدس)..... ٢٥

الوحي من الإمام الغائب. لكنَّ العقل يرى أنَّ هذه الموجة ليست سوى انعكاسٍ للقلق الوجودي للإنسان الحديث. فحين ينهار الإيمان بالحكمة الإلهية، يبحث الإنسان عن بديلٍ يملأ الفراغ ولو كان زائفاً. المنهج العقلي الإمامي يُقدِّم براهين ثلاثة على بطلان هذه الظواهر:

الأول: أنَّ الغيب لا يتجسَّد في إرادة الفرد، لأنَّ إرادة الغيب تابعة لإرادة الله، وهي محكومةٌ بنظام لا يعلمه إلا هو. والثاني: أنَّ الحجَّة في الغيبة ليست معطَّلة، بل هي فاعلة بطرُقٍ غير مباشرة عبر نظام الأسباب والعقول.

والثالث: أنَّ الإيمان بالمهدي عليه السلام لا ينفصل عن الإيمان بالسُّنن، فكما أنَّ الله لا يخرق قوانين الطبيعة لأجل الرغبة، لا يخرق سُنن الغيبة لأجل المدَّعي. فالمهدوية في منطق العقل ليست حَدَثاً خارج التاريخ بل كمال التاريخ نفسه، ومَنْ يدَّعي امتلاكها قبل أوانها إنما يزعم أنه أدريٌّ بالله من الله.

كُلُّ مدَّعٍ للسفارة أو النيابة أو الرؤيا الخاصة يُواجه هذا البرهان الثلاثي: إمَّا أنَّ تكون دعواه موافقة لسُنن الله في خلقه فتفقد خصوصيتها، أو مخالفة لها فتبطل بالضرورة. في الحالتين لا يبقى للمدَّعي منطقٌ يُقيمه إلا منطق العاطفة. والعاطفة، مهما عظمت، لا تُنتج علماً. ولهذا كان الأئمة عليهم السلام يُحدِّثون من أهل الرؤى، لأنَّ الرؤيا لا تملك معياراً موضوعياً يمكن للعقل أن يُقيم عليه يقيناً. إنَّها تشبه

السراب، يراه العطشان ماءً، فإذا جاءه لم يجده شيئاً، وقد ورد في الحديث الصحيح عن الإمام الصادق عليه السلام تعليقاً على ما رُوِيَ بشأن الأذان وأنه رُوِيَ في النوم من قِبَل بعض الصحابة، فقال عليه السلام: «كَذَّبُوا فَإِنَّ دِينَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعَزُّ مِنْ أَنْ يُرَى فِي النَّوْمِ»<sup>(١)</sup>، وفي السياق نفسه يحاول المتسلِّقون لِي عُنُقِ النصوص والآيات، ومن ضمنها الآية الكريمة: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ (الصافات: ١٠٢) ومن الواضح أَنَّ الآية الكريمة قالت في مقام جواب نبيِّ الله إسماعيل على أبيه عليه السلام: ﴿افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾، ولم تقل: (افعل ما رأيت)، فالأوامر الإلهية هي المعيار الأساسي.

تُظهر الفلسفة الإمامية أَنَّ انتظار الإمام ليس انتظاراً سلبياً، بل هو بناء العقل على مثال الحجّة. فكلُّ إنسانٍ ينتظر المهدي عليه السلام يُفترض أن يتحوّل إلى مشروع عقل وفضيلة. أمّا حين يُخْتَزَل الانتظار في بيعة لشخصٍ أو طاعةٍ لزعيمٍ أو انغلاقٍ في جماعةٍ، يتحوّل إلى عبوديةٍ جديدةٍ باسم الحرّية. لذلك يمكن القول: إنَّ سرقة الانتظار أخطر من إنكار المهدي نفسه، لأنَّ المنكر يجهل الفكرة، أمّا السارق فيستعملها لهدم ذاتها.

إذا قورنت التجربتان المسيحية والإسلامية في ضوء التحليل الفلسفي، نجد أن كليهما واجه التحدي ذاته: كيف يُحافظ الوعد الإلهي

(١) الكافي (ج ٣ / ص ٤٨٢ / باب النوادر / ح ١).

التوطئة: سُراق الانتظار بين المسيحية والمهدوية (قراءة في سرقة المعنى المقدس)..... ٢٧

بالخلاص على طهارته من التوظيف الأرضي؟ المسيحية واجهت هذا التحدي في القرون الأولى حين اختطفَ المجيء الثاني في خطابات الحلول واللاهوت الشعبي، والإسلام واجهه بعد الغيبة الكبرى حين ظهرت دعاوى النيابة الخاصة. في الحالتين، المشكلة ليست في النص ولا في الإيمان، بل في الإنسان الذي يحاول أن يختصر المسافة بين الأرض والسماء.

العقل الإمامي لا يرى في المهدوية مشروع خلاصٍ سياسي ولا انتقام تاريخي، بل يراها ضرورةً وجوديةً تُعيد التوازن إلى الكل. ومن هنا كانت سرقتها تهديداً لنظام الوجود لا لمجرد العقيدة. فحين تُختزل الحجة الإلهية في شخصٍ مدعٍ، يحصل امتحان للقانون الكوني للعدل، لأن الواسطة الحقيقية بين الخلق والخالق لا تُختزل في دعوى بشرية.

إنَّ كلَّ تجربةٍ ادَّعت الاتصال بالغيب، من (مونتanos) إلى (الياني)، تحمل في داخلها المفارقة عينها: تسعى لإثبات الإيمان بالغيب لكنها تنتهي إلى الجحود به؛ فيصبح حينها غيباً مزيفاً لصالح التنظيم السري، وهذا ما يجعل سُراق الانتظار شركاء في جوهر واحد، وإن اختلفت أسماؤهم وأديانهم. في الغرب يُقال: إنَّ المسيح عاد، وفي الشرق يُقال: إنَّ المهدي ظهر، لكنَّ النتيجة في الحالتين واحدة: إنكار الغيب باسم الغيب.

الفكر الفلسفي حين يتأمل هذه السلسلة يخلص إلى أنَّ الغيب، في حقيقته، ليس ميداناً للدعاء، بل أفقاً للعقل. وكلُّ مَنْ حوَّله إلى تجربة

خاصّة فقد جهل معناه. لذلك تبقى مهمة الفيلسوف والمتكلم معاً هي حماية المفهوم من التبسيط ومن الاستغلال. فالإمام المهدي عليه السلام ليس رمزاً قابلاً للنسخ، ولا مشروعاً سياسياً قابلاً للاستثمار، بل هو ضرورة العقل في اکتھال مسار الوجود نحو العدل المطلق.

وعليه، فإنّ الخطر الذي يمثله سُراق الانتظار لا يقف عند حدود الفتنة الاجتماعية، بل يمتدُّ إلى تشويه البنية الميتافيزيقية للعقيدة. لأنهم لا يسرقون فكرةً جزئيةً بل يسرقون مفهوم الغيب نفسه، فيحوّلونه من سرٍّ إلهيٍّ إلى وسيلةٍ بشريةٍ. وحين يُصبح الغيب أداةً، يفقد الإنسان قدرته على التوجّه إلى الله، لأنّ الطريق بينه وبين المطلق يُحتلُّ بمنّ يدعون الوصال.

من هنا يتبيّن أنّ أخطر ما أنتجته هذه الحركات ليس القتل ولا الانتحار الجماعي، بل تعطيل العقل الجمعي عن إدراك معنى الانتظار الحقّ. فبدل أن يكون الانتظار حركةً نحو الكمال، صار هروباً إلى المجهول. وبدل أن يكون المخلص وعداً إلهياً، صار سلطةً دنيويةً. وهكذا تحوّل الدين، الذي أراد للإنسان أن يترقّى في مراتب المعرفة، إلى نظامٍ للهيمنة النفسية.

إنّ العقل، وهو ينظر إلى مسار هذه التجارب، يُدرك أنّ النجاة منها لا تكون بالتكفير ولا بالعاطفة، بل بإعادة تعريف العلاقة بين الغيب والعقل. فالغيب في الرؤية الإمامية ليس غياباً، والعقل ليس بديلاً عنه، بل كلاهما وجهان لحقيقةٍ واحدةٍ: الحجّة الباطنة والحجّة

التوطئة: سُراق الانتظار بين المسيحية والمهدوية (قراءة في سرقة المعنى المقدس)..... ٢٩

الظاهرة. فإذا تعطلَّ أحدهما فسد الآخر. لذلك فإنَّ سُراق الانتظار لا يُجربون العقل وحده ولا الغيب وحده، بل يُجربون انسجامهما الذي يقوم عليه معنى الإنسان في الوجود.

\* \* \*



كلمة إلى القارئ قبل الدخول



أردتُ بهذه الكلمة أن أمهد للقارئ طريق الفهم قبل أن يدخل إلى نصٍّ قد تُثير مفرداته التباساً إن لم تُقرأ في سياقها المقصود. فالمصطلحات التي أستعملها في هذا الكتاب - مثل العزلة، السريّة، التقيّة، التمويه، الوصال، الانتظار، التمهيد - لا تُحمّل هنا على معانيها كما ألفناها في أدبيّات الكُتب، بل على دلالاتها في الاستعمال التنظيمي والنفسي المنحرف الذي تمارسه الجماعات المغلقة التي تتخذ من العقيدة المهدويّة ستاراً للهيمنة أو النفوذ أو النفسانيّات المريضة الباحثة عن سلطةٍ باسم الاتّصال بالغيّب.

هذه الكلمة ليست جزءاً من المقدّمة ولا من التوطئة، بل هي مساحةٌ لتصفية اللغة من الالتباس، ومفتاحٌ لقراءةٍ واعيةٍ لا تتسرّع في الحكم. أردتُ بها أن أُعلن حدود المفاهيم قبل أن تبدأ الرحلة بين الفصول، لأنّ الخطأ في فهم اللفظ الواحد قد يقلب المقصود من النقيض إلى النقيض.

فعندما أذكر العزلة، لا أعني بها الخلوة الإيمانيّة التي دعت إليها الروايات في مناجاة الله ومحاسبة النفس، ولا ذاك الانقطاع الذي يُعين المؤمن على حماية أخلاقه وتهذيب قلبه واستعادة صفائه؛ بل أعني العزلة المصنوعة التي تُفرض على الإنسان داخل الجماعات المغلقة،

لَتَفَكِّكَ ارتباطه بعائلته ومجتمعه ومصادر وعيه، فيغدو تابعاً أعمى يُعاد تشكيله تدريجياً وفق منطق الجماعة لا وفق فطرته وعقله.

في هذه العزلة، لا يُتْرَك الفرد لضميره، بل يُدار وعيه كما تُدار الموجات: يُقَطَّع عن الإعلام الحرِّ، وتُرَاقب صداقاته، وتُعاد صياغة لغته العاطفية والفكرية حتَّى يفقد استقلاله. وحين يطمئنُّ التنظيم إلى تمام العزل، يبدأ ضخَّ الأفكار الجديدة تحت غطاء دعاوى الولاء والخصوصية الروحية والاصطفاء المهدوي. وهكذا تتحوَّل العزلة من وسيلة تربية إلى سجنٍ فكريٍّ مُصمَّم بعناية؛ تُصادر فيه حرية التفكير باسم الحقيقة، ويُقيَّد حرية الاختيار باسم الاجتباء، وتُعاد صياغة القيم باسم الصفاء.

إنَّ هذه العزلة ليست عبادةً ولا زهداً، بل مصدر الحياة الوحيد للفرد المأسور داخل التنظيم، إذ لا يسمع إلا ما يُملى عليه، ولا يرى إلا بعين الجماعة، ولا يثق إلا بخطابها، ولا يمارس حقَّه في حرية الاختيار إلا بإذن مدَّعي الاتصال بالإمام. يُعاد بناء وجدانه حتَّى يعتقد أنَّ الخارج عن الجماعة خارجٌ عن الله نفسه، وأنَّ العودة إلى العقل والمنطق خيانةٌ لخطِّ السماء.

وحين أستخدم مفردة السرية، فإنني لا أصف التقيَّة التي أقرَّها الإسلام لحماية الإنسان والمؤمنين في ظروف الخطر، ولا ذاك الحذر النبيل الذي صان دماء المظلومين في عصور الظلم؛ بل أعني السرية التنظيمية التي تُبنى على الخداع والتقطيع والتحكُّم في المعلومة. فالتقيَّة

كلمة إلى القارئ قبل الدخول..... ٣٥

في جوهرها سترٌ مؤقتٌ للحقِّ حين يُخشى عليه، أمَّا السريَّة في هذه التنظيمات فهي سترٌ دائمٌ للباطل حتَّى لا يُكشَف.

في التقيَّة، الخوف على الناس، وفي التمويه، الخوف من الناس. في التقيَّة، يحفظ المؤمن إيمانه ليحمي نفسه والآخرين، وفي التمويه، يخفي (الحجِّي والقاطع) وجهه ليُضللَّ الآخرين. التقيَّة فضيلةٌ حماية، والتمويه رذيلةٌ تلاعب.

التقيَّة تستبقي حياة الإنسان وتمهِّد لظهور الحقِّ حين تحين الساعة، أمَّا التمويه فيقتل الحقيقة لئلا يراها أحد. فشتان بين مَنْ يضع الكلمة في موضعها الحصين انتظاراً لوقتها، ومَنْ يدفنها عمداً لئلا تُفضَّح أكاذيبه.

التقيَّة خلُقُ الأنبياء في مواجهة الظلم، والتمويه حيلةُ المستبدِّ في مواجهة الضوء. في الأولى يسكت الصادق ليحمي الناس، وفي الثانية يتكلَّم الكاذب ليحكمهم. الأولى تهدف إلى صيانة الحياة، والثانية تهدف إلى التحكُّم في الحياة.

لذلك، حين أتحدَّث عن السريَّة في هذا الكتاب، فإنني أصف بنية الخداع التي تُدار بها التنظيمات المغلقة: كيف تُقسَّم المعلومات طبقاتٍ طبقاتٍ، وكيف يُمنع العضو من السؤال بدعوى (الطاعة للإمام)، وكيف يُربَّى أعضاء التنظيم على الخوف من الخارج باسم حماية السرِّ، حتَّى يُصبح السرُّ نفسه هو الإله الجديد الذي تُقدِّم له الطاعة العمياء.

غير أنَّ أخطر ما اشتقته هذه الجماعات من مفهوم التقيَّة والمدارة

هو المداراة المتصنعة حين تُستخدم المداراة كوسيلة للخداع الاجتماعي وصناعة الألفة الشكلية، لا لحفظ الحق وبناء علاقات إنسانية طيبة. المداراة المتصنعة في حقيقتها ازدواجية خطاب مقننة داخل هذه التنظيمات. فالتقية والمداراة في تراث أهل البيت عليهم السلام تهدفان إلى تجنب الاستفزاز وحفظ وحدة الناس، وهما خُلقتان أخلاقيتان منبعهما الرحمة؛ بينما (المداراتية التنظيمية) التي يُروَّج لها هؤلاء إنما هي قناعٌ لخداع المجتمع.

يظهر العضو أمام الناس بوجهٍ اجتماعيٍّ مطمئنٍّ، لكنّه في باطنه يحمل وعياً تنظيمياً مغلقاً يرى الآخرين أدواتٍ للامتحان أو للإخفاء. يُمارس ازدواجية خطابٍ كاملة: يتحدّث بلغةٍ أمام العامة ولغةٍ أخرى أمام (الصفّ المختار)، بزعم أنّ الإمام أمره بكتمان السرّ وعدم إفشائه. وهكذا تتحوّل ازدواجية الخطاب من حذرٍ مشروعٍ إلى استراتيجيةٍ تضليلٍ ممنهجة.

هذه الازدواجية لا تُنتج إلا شخصياتٍ مزدوجة الوجدان، تتعايش فيها الطاعة المطلقة المدّعي الاتصال بالغيب مع الكذب المبرّر، ويُمنح الأعضاء شعوراً بأنّهم الصفّ النقيّ المختار الذي فوّضت إليه أدوارٌ خاصّةٌ في مشروع الإمام، في حين أنّ كلّ ما يُمارس عليهم ليس إلا منظومة تحكّم نفسيّ دقيقة تُعيد توزيع الولاء والعار داخل وعيهم. فيقال لهم: إنّكم لستم مأمورين بالكذب، بل بـ (حفظ السرّ). وإنّكم لا تُخدعون الناس، بل (تحمون الدعوة المهدوية). وإنّكم لا

كلمة إلى القارئ قبل الدخول..... ٣٧

تمارسون ازدواجيةً بل (حكمة). فيتحوّل الكذب إلى عبادة، والتمويه إلى طاعة، ويُستبدل الصدق بالعقيدة السريّة التي لا تُراجع.

هنا، يُصبح الفرق بين التقيّة والمداراة وازدواجية الخطاب ضرورةً فكريّةً وأخلاقيّةً لفهم هذا الكتاب. فالتقيّة تهدف إلى حماية الناس من بطش الظالم، والمداراة تهدف إلى حفظ السلم الأهلي وحقن الدماء، أمّا ازدواجية الخطاب فغايتها الخداع والسيطرة وتكوين مجتمع موازٍ يخبئ داخل المجتمع الأكبر.

إنّ الأولى نابعة من خُلُقٍ نبويٍّ رحيمٍ، والثانية من ذهنيّة سلطويّة مريضة؛ الأولى تحفظ الثقة بين الإنسان وربّه، والثانية تُحطّمها بين الإنسان ونفسه. في التقيّة يلتزم الصادق الصمت ليحمي الصدق، وفي ازدواجية الخطاب يتكلّم المنافق ليُخفي الكذب.

هذه المفارقة هي التي تجعل نقد التنظيمات المنحرفة واجباً دينياً وأخلاقياً، لا موقفاً سياسياً عابراً. لأنّها لا تُهدّد الفكر فحسب، بل تُهدّد صدق الإيمان نفسه حين تزرع في وعي ضحايا الجماعات المهدويّة المنحرفة أنّ الكذب طريقٌ إلى القرب من الله، وأنّ الخداع طاعةٌ لحماية الموعود ومشروعه.

ثمّ يأتي المفهوم الثالث، وهو الوصال بالغيب، أخطر ما في هذه البنية. إنني لا أقصد بالوصال ذلك الشعور الروحي العميق الذي يعيشه المؤمن في محبّته للإمام المهدي عليه السلام، ولا تلك الحالة الوجدانيّة التي تدفع الإنسان إلى الإصلاح في غيبة وليّه والشوق لرؤية بزوغ

شمس الوعد الإلهي، بل أقصد الوصال المدعى الذي يتحوّل إلى سلطة بشرية ودكتاتورية على العقول.

هؤلاء الذين أدعوا الاتصال بالإمام لا يكتفون بالكلام باسمه أو بتفسير إرادته المزعومة، بل يصادرون حياة الأعضاء اليومية باسم ذلك الاتصال: يُحدّدون لهم ما يأكلون وما يلبسون، مَنْ يزورون ومَنْ يتجنّبون، ويُقرّرون (قنابل الحُبِّ) يلقونها على مَنْ، ويعبسون في وجه مَنْ، كيف يفرحون وكيف يحزنون. يتسلّطون على الضحايا عبر نظام من الطاعة المغلقة، يربطون بين مخالفة مدعى الاتصال بالمهدي وبين غضب السماء، فيتحوّل الخروج من التنظيم إلى خروج من الدّين.

وهكذا تُبنى أعتى أنواع العبودية: عبودية مقدّسة مغلّقة بشعاراتٍ عن الإخلاص والحكمة، يتلقّاها الأتباع بوصفها قرباتٍ لا جرائم. لا يتحدّث هؤلاء باسم العقل أو النصّ، بل باسم الغيب الذي لا يُراجع، وباسم الإمام الذي لا يُساءل، فتسقط كلُّ رقابة وكلُّ نقدٍ في دائرة الاتّهام.

وهنا وجب التمييز: فليس كلُّ مَنْ يتحدّث في الدّين ناطقاً باسمه، ولا كلُّ مَنْ يرفع شعار الهداية سائراً في طريقها.

إنّ المرجعية الدّينية ليست سلطةً على العقول، بل طريقٌ بيانٍ يُعين المؤمن على معرفة تكليفه الشرعيّ بعقلٍ حرٍّ واختيارٍ طوعيٍّ. هي بابٌ يُستأنس به في طلب الفهم، لا قيدٌ يُغلق باب التفكير. فالمؤمن في علاقته بالمرجع ليس مكرهاً ولا مسلوب الإرادة، بل صاحب قرارٍ



لا من علم ولا من خدمة، بل بادعاءً للاتصال بالغيب يُغلفونه بازدواجيةً خطابيةً تمويهيةً.

يُظهرون وجهاً اجتماعياً رحيماً يتحدث عن الحُبِّ والاحتضان وحقوق الإنسان وحماية البيئة والتجديد الثقافي، ويخفون في الوقت نفسه وجهاً باطنياً تنظيمياً مغلقاً، يقوم على الطاعة المطلقة والانفصال عن المجتمع، وعلى هندسةٍ دقيقةٍ للعلاقات والمشاعر داخل الجماعة.

يُقدّمون أنفسهم للعالم بعباراتٍ إنسانيةٍ عاطفيةٍ ناعمةٍ، لكنهم في الداخل يمارسون أقصى درجات التحكم النفسي والعزل عن الخارج. فاللغة عندهم وسيلةٌ تمويه، لا وسيلةٌ تواصل، والرحمة التي يتحدثون عنها غطاءٌ يُخفون تحته بنيةً مغلقةً من الانضباط القهري والولاء الموجه.

وهكذا يُعاد إنتاج الازدواجية: خطابٌ منفتحٌ للعامة، وخطابٌ سرّيٌّ للخوَص، ظاهرٌ يُروّج لصفاء الروح، وباطنٌ يُعيد تشكيل العقول في إطارٍ تنظيميٍّ صارمٍ يُبرّر الكذب باسم المصلحة، ويُلبس السيطرة لباسَ المحبة.

ومن هنا، فإنّ هذا الكتاب يدافع عن صفاء الدّين من الذين سرقوا لغة الانتظار، وأدخلوا عليها معاني الوصاية والغلو والتسلط، حتّى غدت الغيبة عندهم ذريعةً للهيمنة، لا امتحاناً للإخلاص.

وقد يُثار الاعتراض بأنّ معظم هذه التنظيمات إنّما هي صناعة خارجية، تموّل وتوجه لتفتيت المجتمعات وإضعاف العقيدة وتمزيق

كلمة إلى القارئ قبل الدخول..... ٤١

البنية الاجتماعية في العالم الإسلامي، وأن التحليل النفسي والاجتماعي ليس ذا جدوى ما دام الأصل خارجياً.

وهذا الرأي وإن كان يجد شواهد تاريخية على تدخل القوى الكبرى في الشؤون الدينية والثقافية، إلا أن موضوع هذا الكتاب لا يتناول تلك الأبعاد السياسية أو الاستخبارية، بل يتقصى البنية النفسية والاجتماعية والميكانزمات الداخلية التي تجعل هذه المنظمات قادرة على استقطاب الأفراد، والتحكم فيهم، وإعادة تشكيل وعيهم، واستثمار القضية المهدوية بصورة منحرفة بُرر وجودها واستمرارها.

فالتحليل هنا ينصب على الداخل: على الإنسان الذي يُستدرج، وعلى الخطاب الذي يُخدع به، لا على الجهة التي تُموله أو تُوجّهه. إن حديثي عن هؤلاء (السراق) ليس تحاملاً على فئة أو مجموعة صغيرة، بل بحث في ظاهرة بشرية تتكرر متى ما غاب الوعي وساد الخوف. فكل زمان تُسرق فيه المفردات الدينية لتبرير الطغيان، يُولد فيه شكل جديد من (سراق الانتظار).

هذه الكلمة، إذن، ليست شرحاً لمحتوى الكتاب، بل بيان لطريق قراءته. فالقارئ هنا شريك لا متلق، ومهمته ليست أن يُصدق الكاتب بل أن يُحاكم الوقائع بعقله وضميره.

أكتب هذه الكلمات احتراماً لعقل القارئ قبل أن أقدم له المادة، لأنّ الفهم في القضايا الدينية الحساسة يحتاج إلى أمانة في المصطلح بقدر ما يحتاج إلى شجاعة في الطرح.

أدعوك، أيها القارئ الكريم، أن تقرأ هذا الكتاب على مهل، أن تُفرِّق بين المفهوم والتمثيل، بين النقد والتحريض، بين التحليل والخطاب. اقرأه كمن يُزيل الغبار عن مرآة لا كمن يُحطِّمها.

ف (سُراق الانتظار) لا يتحدَّث عن أشخاصٍ بقدر ما يتحدَّث عن آليَّة نفسيَّة واجتماعيَّة تسلَّت إلى المجتمعات حين عطل مرصاد الرقابة العقليَّة. إنَّ الهدف أن نُعيد للإيمان مضمونه الإنساني، ولانتظار مكانته الأخلاقيَّة، ولضحايا هذه التنظيمات وعيهم الذي ضاع بين الخوف والقداسة العمياء.

فلنمضِ معاً، على بصيرةٍ وهدوءٍ، لنتبَّع كيف يمكن لفكرةٍ وُلِدَت من رحم الأمل أن تُختطف وتحوَّل إلى أداة للسيطرة، وكيف يمكن استردادها من أيدي الذين سرقوها باسم الإمام الذي كان غيابُه امتحاناً للصدق، لا ذريعةً للدَّعاء.

الفصل الأول:

فلسفة الرجاء

المخلص في ضمير الإنسان



### الرجاء كجوهر في بنية الوعي الإنساني:

من الصعب أن نتصوّر الإنسان بلا رجاء. فكما أنّ الجسد لا يقوم بلا قلب، كذلك لا يقوم الوعي الإنساني بلا أفق يتجاوز الحاضر. إنّ الرجاء ليس نزعة وجدانيّة هامشيّة، بل هو عنصر أصيل في بنية العقل الإنساني؛ إنّّه حاجة وجوديّة للمعنى، ورفض ضمنيّ للعبث. فحين يتأمّل الإنسان مشاهد الظلم، ويقارنها بما في ذاته من ميل إلى العدالة، يكتشف أنّ بين ما هو كائن وما ينبغي أن يكون مسافة لا يسدّها إلاّ الأمل في اكتمالٍ قادم، في عدالةٍ مؤجّلة، في ظهورٍ موعودٍ.

الرجاء، بهذا المعنى، ليس عاطفةً، بل رؤية عقلية تصدر عن مبدأ الحكمة. فالعقل لا يقبل أن يكون الوجود عبثاً، ولا أن تكون حركة التاريخ بلا غاية؛ ولذلك فإنّ فكرة المخلص لا تولّد من فراغ ديني، بل من منطقٍ كونيٍّ يرى أنّ النظام الأخلاقي للعالم لا يكتمل إلاّ بظهور مَنْ يُعيد توازنه. ومن هنا، تتلاقى الفطرة والعقل في نقطة واحدة: أنّ للإنسان موعداً مع العدالة، ولو تأخّر الزمن في كشفه.

### الرجاء بوصفه دليلاً على توق العقل إلى الكمال:

الإنسان بطبعه كائن يطلب الكمال. وهذا الطلب ليس رفاهاً فلسفيّاً، بل مبدأ عقلائي يُفسّر سعي الإنسان الدائم نحو الأجل.

والأعدل والأصدق. ومن هذا التوق يُولد الرجاء؛ فالعقل الذي يُدرك أنّ العدل الكامل لم يتحقق بعد، يُدرك في الوقت نفسه أنّ وجود العدل في الوجدان يدلُّ على وجود إمكانه في الخارج، وإلا لما وُجد الميل إليه.

الرجاء، إذن، هو حركة العقل من الواقع إلى المثال، من النقص إلى التمام، وهو ما يُفسَّر سعي الإنسان الدائم نحو المخلص، لا هرباً من العالم بل تصديقاً بأنّ العالم مؤهل لأن يكتمل. وقد أشار القرآن إلى هذا البُعد الوجداني حين قال: ﴿وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۗ﴾ (القصاص: ٥). إنّ هذه الآية لا تصف حدثاً سياسياً بل سنّة وجودية وعقلية في التاريخ: أنّ الغلبة في النهاية تكون للحقّ لا للباطل وللمظلوم لا للظالم، لأنّ العدل أصلٌ لا يُمحى. ومن هنا، يُصبح الرجاء برهاناً عقلياً على ثبات القيم في مسار الوجود.

### المخلص كضرورة عقلية لا كخرافة وحلم وهمي:

حين يتحدّث الإنسان عن المخلص، فإنّه لا يتحدّث عن أسطورة أو رمز شعريّ أو أمنية عاطفية، بل عن نتيجة منطقيّة لرؤية توحيدية للعالم. فالعقل الذي يقرُّ بوجود إله عادلٍ حكيمٍ لا يمكن أن يقبل أن يترك الله خلقه فوضى، وأن تنتهي حركة الوجود دون أن تتجلّى عدالته على الأرض. إنّ فكرة المخلص، في جوهرها، ليست إلا ترجمة عقلية لمبدأ الحكمة الإلهية. فكما أنّ الوجود له بداية منظمّة بالنبوة، فلا بدّ أن تكون له نهاية منظمّة بالإمامة والخلاص.

الفصل الأوّل: فلسفة الرجاء (المخلّص في ضمير الإنسان)..... ٤٧

وفي هذا السياق قال الإمام عليّ عليه السلام: «وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ، وَيُرْوَهُمْ آيَاتِ الْمَقْدِرَةِ»<sup>(١)</sup>. إنّ بعثة الأنبياء وغائية الإمامة حركة متّصلة لإثارة دفائن العقل في الإنسان، أي لإيقاظ منطقته الداخلي الذي يُدرك أنّ العدالة لا يمكن أن تظلّ حُلماً. فالمخلّص في الوعي الإمامي ليس معجزةً استثنائيةً، بل هو ثمرة انتظام السنن الإلهية. وإذا كانت النبوة بداية البيان، فإنّ الظهور هو اكتمال البرهان.

### الرجاء بين الإيمان والتكليف:

قد يتوهّم بعض الناس أنّ الرجاء يُبرّر القعود، وأنّ انتظار المخلّص يعني من العمل. لكنّ القراءة العقلية لفكرة الانتظار تكشف العكس تماماً: فالرجاء الحقيقي هو أعلى درجات المسؤولية؛ إذ إنّ مَنْ يؤمن بالمخلّص لا ينتظر لحظة الظهور دون عمل واجتهاد، بل يعمل ليكون أهلاً لزمناها. لهذا قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ الْقَائِمِ فَلْيَنْتَظِرْ وَلْيَعْمَلْ بِالْوَرَعِ وَمَحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ وَهُوَ مُنْتَظَرٌ»<sup>(٢)</sup>.

فالانتظار في النصّ ليس حالة سلبية، بل فعلاً أخلاقياً مستمراً. إنّ مشروع وعي يتطلّب التزاماً بالفضيلة، لا انسحاباً من المجتمع. فالرجاء هنا ليس وعداً بالخلاص الفردي، بل عمل واجتهاد للخلاص

(١) نهج البلاغة (ص ٤٣ / الخطبة ١).

(٢) الغيبة للنعماني (ص ٢٠٧ / باب ١١ / ح ١٦).

الجماعي. من هذا المنطلق، يمكن القول: إنَّ الانتظار في الفكر الامامي هو الوجه العملي لفلسفة الرجاء؛ فالمؤمن لا ينتظر ليرى المخلص فحسب، بل ينتظر ليصير مهياً له. وهذا التمييز هو الذي يجعل الوعي الإمامي وعياً عقلاً مقاوماً للانحراف، لأنَّه يربط الغيب بالتكليف، لا بالاستسلام.

### البنية النفسية للانتظار:

في علم النفس الديني، يُعتبر الرجاء آليّة توازن نفسي بين الخوف والطمأنينة، وبين الواقع والمثال. لكنَّ ما يميّز فكرة الرجاء في السياق المهدي أنّها لا تُدار بعاطفة الخلاص الفردي، بل بتوقُّ كونيٍّ إلى العدل العامِّ. فالمؤمن لا يبحث عن نجاة وحده، بل عن نجاة الإنسانية. إنَّه يتجاوز ذاته نحو أفقٍ جمعيٍّ، فيتحوّل الرجاء إلى محرِّكٍ اجتماعيٍّ.

هذه البنية النفسية للانتظار تُفسّر كيف يُصبح الإيمان بالمخلص مصدر طاقةٍ أخلاقيّة. فمنَّ ينتظر عدالة الله، لا يمكن أن يرضى بظلم البشر. ومنَّ يعتقد أنّ العالم مقبلٌ على النور، لا يمكن أن يعيش في ظلام الضمير. ولذلك، يُعتبر الرجاء من أعمق أشكال الصبر الواعي، لأنَّه يجمع بين القبول بالواقع والعمل على تجاوزه.

### الظهور كتحقُّق للوعد الإلهي في التاريخ:

يستطيع الإنسان أن ينظر إلى الظهور الموعود لا بوصفه حدثاً فحسب، بل بوصفه اكتمالاً للعقل في حركة التاريخ. فالتاريخ، في

الفصل الأوّل: فلسفة الرجاء (المخلّص في ضمير الإنسان)..... ٤٩

منطق الإيمان، ليس سلسلة مصادفات، بل رحلة نحو الوعي الكوني بالعدل. كلُّ تجربة بشريّة، وكلُّ صراع بين الحقِّ والباطل، إنّما يُمهّد لوعيٍّ جمعيٍّ يدرك في النهاية أنّ الكمال الإلهي هو المصير.

من هنا نفهم قول الإمام عليّ عليه السلام: «يَعْطِفُ أَهْوَىٰ عَلَىٰ أَهْدَىٰ إِذَا عَطَفُوا أَهْدَىٰ عَلَىٰ أَهْوَىٰ، وَيَعْطِفُ الرَّأْيَ عَلَىٰ الْقُرْآنِ إِذَا عَطَفُوا الْقُرْآنَ عَلَىٰ الرَّأْيِ»<sup>(١)</sup>. هذا النصُّ لا يصف فقط قائداً منتظراً، بل يصف لحظة توازنٍ كونيٍّ يعود فيها العقل ليقود الوعي الإنساني، فيتحرّر الناس من عبوديّة الأهواء إلى نور الحكمة. إنّ الظهور ليس انفصلاً عن التاريخ، بل هو ذروته، اللحظة التي يتجلّى فيها القانون الأخلاقي للعالم في صورة العدل التامّ.

### العدالة المؤجّلة كحجّة العقل:

أحد أبرز البراهين العقلية على ضرورة المخلّص أنّه الضمان المنطقي لعدم عبثيّة العالم. فلو انتهى الوجود دون أن تتحقّق العدالة، لكان الظلم هو القاعدة والعدل هو الاستثناء، وهو ما لا يقوّه عقل ولا يقبله وجدان. إنّ إرجاء العدالة إلى زمن الظهور ليس تأجيلاً للعقاب، بل هو استكمالٌ للحكمة. فالزمن في الرؤية الإيمانية ليس خطأً عبثياً، بل مخطّطٌ دقيقٌ يمتحن فيه وعي الإنسان.

هكذا يُصبح الرجاء بالمخلّص تجسيداً لمبدأ العدل العقلي. فهو

(١) نهج البلاغة (ص ١٩٥ / الخطبة ١٣٨).

٥٠ ..... سُراقُ الانتظار

إعلان أن القِيم ليست عواطف، بل حقائق تنتظر اكتمال ظهورها. ولذلك، فإنَّ المؤمن بالعدل ينتظر المخلص كما ينتظر العالم اكتمال البرهان: بثقة هادئة لا بخوفٍ غيبيّ.

### التكامل بين الغيب والعقل في فلسفة الرجاء:

من خصائص المدرسة الإمامية أنَّها لم تفصل الغيب عن العقل، بل جعلت العقل سبيلاً إلى فهم الغيب، والغيب ميداناً لتوسعة العقل. فالإمام الغائب ليس غياباً عن الوجود، بل حضوراً في مستوى آخر من الفاعلية. إنَّه الضامن لاستمرار المنظومة الأخلاقية في العالم، كما أنَّ وجود الشمس خلف الغيم لا يعني انقطاع نورها.

هذه الرؤية تحفظ للإنسان توازنه بين العقل والإيمان، لأنَّها لا تُلزمه بالجمود في الغيب، ولا بالإلحاد باسم العقل. إنَّها تدعوه إلى أن يُفكِّر وهو يؤمن، وأن يؤمن وهو يُفكِّر. فكلمة ازداد عقل الإنسان نضجاً، ازداد وعيه بأنَّ المخلص ليس غريباً عن منطق الوجود، بل هو ذروة هذا المنطق.

### الرجاء كقيمة حضارية:

حين نفهم الرجاء بهذا العمق، ندرك أنَّه ليس مجرد شعورٍ دينيٍّ، بل هو رؤية حضارية تحمي الإنسان من السقوط في العبث والعدمية. فالأمم التي تفقد رجاءها، تفقد قدرتها على الإصلاح. والشعوب التي تُفرِّغ انتظاراتها من مضمونه الأخلاقي، تُصبح قابلةً للاستغلال من قبل

الفصل الأوّل: فلسفة الرجاء (المخلّص في ضمير الإنسان)..... ٥١

كلّ مَنْ يزعم امتلاك مفاتيح الغيب. إنّ الرجاء الواعي يصنع أُمَّةً فاعلة، والرجاء المزيف يصنع قطيعاً تابعاً. ولذلك كان الوعي العقلي هو صمّام أمان الإيثار المهدوي. فحين يتحوّل الرجاء إلى خضوع أعمى بدلاً من التزام بالقضيّة، نكون قد انحرفنا من الإيثار إلى الوثنيّة الفكرية.

### الانحراف عن فلسفة الرجاء:

الانحراف لا يبدأ بالتمرد على الفكرة، بل بسوء فهمها. حين يتحوّل الانتظار من موقف عقليّ إيجابيّ إلى عزلة غيبية، تفتح الطريق أمام التنظيمات الغامضة والمجموعات المنحرفة لتسرق المعنى. فهم لا يأتون من خارج الدّين، بل يتسلّلون من داخله، عبر تأويل الرجاء إلى طاعة مطلقة لشخص يدّعي أنّه (الموصل إلى المخلّص أو باب المولى). وهكذا، يُفرغون الفكرة من جوهرها ويحوّلونها إلى سلطةٍ نفسيّة. العلاج ليس برفض الرجاء، بل بإعادته إلى منبعه العقلي: إنّ الانتظار ليس غياباً عن الواقع، بل حضوراً فيه بوعي أكبر. فمنّ ينتظر العدل لا يمكن أن يكون ظالماً، ومنّ يؤمن بالمخلّص لا يمكن أن يكون عبداً لبشر يدّعي تمثيله الخاصّ.

### خاتمة الفصل.. الرجاء كوعي بالعقل والمصير:

الرجاء في جوهره ليس أملاً غامضاً، بل معرفةً موجّهةً. إنّ إيماناً بالحكمة الإلهية التي تسري في التاريخ، وإصراراً على أنّ العدالة ليست

٥٢ ..... سُراقُ الانتظار

أمنيةً بل سُنَّةً. ولذلك فإنَّ انتظار المخلَّص هو إعلان ولاءٍ لعقلانيَّة  
الدين في مواجهة عبث الإنسان.

إنَّ الرجاء الذي يُعلِّمه لنا القرآن وأهل البيت عليهم السلام ليس تسليماً  
بالواقع، بل مقاومةً له بالوعي. فالمؤمن لا يهرب من الظلم بحلم  
غيبِّي، بل يواجهه بيقينٍ بأنَّ الله قد وعد بالعدل، وأنَّ هذا الوعد لا  
يتحقق إلاَّ بمشاركة العقلاء الأُمنا في تهيئة زمانه. ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا  
فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ (التوبة: ١٠٥).

بهذه الرؤية يُصبح الرجاء مسؤوليَّة لا مهرباً، وعقلاً لا عاطفةً.  
فكلُّ انتظارٍ لا يُعيد الإنسان إلى فعله، ليس انتظاراً للمخلَّص بل  
انتظاراً للوهم. وحين يستعيد العقل دوره في الإيمان، يستعيد الإيمان  
معناه، ويُصبح الإنسان شريكاً في صناعة العدالة المنتظرة، لا متفرِّجاً  
عليها.

\* \* \*

الفصل الثاني:

من العقيدة إلى التنظيم

متى يبدأ الانحراف؟



## تمهيد.. حين تتحوّل الفكرة إلى قفص:

ينبغي البدء من نقطة بديهية: الانتظار عقيدة حرة، تُبقي القلب مفتوحاً على الوعد، والعقل مشدوداً إلى مسؤوليّة التهيؤ. غير أنّ الأفكار العظيمة تحمل دائماً قابليّةً خطيرة لأن تُختزل في أشكالٍ تنظيميّة، وإذا ما صادفت ظرفاً اجتماعياً مضطرباً، وقائداً ذا نزعة كاريزميّة وجرحاً جماعياً يبحث عن تضميدٍ سريع، فإنّ الاختزال يتعاطم إلى حدّ أن تتحوّل الفكرة من أفقٍ مفتوحٍ إلى قفصٍ مغلقٍ. هنا بالضبط يظهر التنظيم السريّ الذي يتغذّى على ظلال الفكرة ولا يحيا في نورها، ويصنع لنفسه حدوداً تحميه من النقد لا من الانحراف.

الدين في جوهره خطابٌ كشفٍ وتذكيرٌ بالعقل والحجّة، بينما التنظيم السريّ خطابٌ إخفاءٍ واستتباعٍ. الفكرة المهدويّة - بما تُمثله من وعدٍ بالعدل - لا تنزلق إلى الانغلاق إلاّ عندما تنفصل عن منطق الغيبة بوصفها امتحاناً للعقل والأُمَّة. فالغيبة حكمَةٌ تُلزم المؤمن أن يتوكّل بعقله وضميره المرجعي، لا أن يعهد بعقله إلى وسيطٍ يدّعي مفاتيح الغيب. وكلُّ ادّعاءٍ للوساطة الخاصّة يضع نفسه منذ اللحظة الأولى في مواجهة مقاصد الغيبة ذاتها.

**منطق الانحراف.. احتكار الغيب وتحويله إلى سلطة:**

أخطر التحوُّلات التي تطرأ على الخطاب المهدي عندما يمرُّ عبر أدوات التنظيمات السريَّة التي تدَّعي نيابة المهدي هو تحويل الغيب إلى رأسمال سلطوي. يبدأ المسار بادِّعاء فهمٍ خاصٍّ أو نفاذٍ استثنائيٍّ إلى تأويل النصوص، ثمَّ يتطوَّر إلى تلميحٍ باتِّصالٍ من نوع ما بالعالم الغيبي، لينتهي إلى احتكارٍ للحقِّ لا يترك للآخرين سوى خيارين: الالتحاق أو الارتياح في دينهم. هذا الاحتكار يشغل عبر آليتين متداخلتين: صناعة ندرةٍ معرفيَّةٍ (نحن نعلم ما لا يعلم الناس)، وصناعة ندرةٍ روحيَّةٍ (نحن نتَّصل بما لا يتَّصل به الناس). وعند هذه العتبة يُصبح الغيب ذريعةً لتسويغ الهيمنة بدل أن يبقى سرًّا يُريُّ التواضع ومسؤوليَّة التلقِّي.

منطقيًا، إنَّ الغيب بما هو غيب لا يُستباح بمدَّعياتٍ شخصيَّة. القاعدة القرآنيَّة التي ترسم حدَّ المعرفة تقول: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ (الإسراء: ٣٦). إنَّها قاعدة عقليَّة قبل أن تكون تعبدية: لا تُنشئ التزامًا عامًّا إلا على بيِّنة يمكن تعقلُّها والاحتجاج بها. وكلُّ (معرفة خاصَّة) لا تُعرض على المعيار المشترك للعقل والنصِّ، تتحوَّل إلى سلطة فوق المساءلة، وهذه هي لحظة الولادة الفعلية للتنظيم المغلق.

**سيكولوجيا المؤسَّس.. الكاريزما حين تتغذَّى من الفراغ:**

يتشكَّل المؤسَّس الكاريزمي عند تقاطع ثلاثة عناصر: خيالٌ روحيٌّ متضخَّم يرى في ذاته أداةً استثنائيَّةً، وذكاءٌ تواصلِيٌّ يُحسن قراءة

الفصل الثاني: من العقيدة إلى التنظيم (متى يبدأ الانحراف؟)..... ٥٧

جراح الناس، ولحظة اجتماعية تبحث عن معنى سريع. ليس كلُّ كاريزما مرضاً، لكنّها تُصبح كذلك عندما تستبدل التزكية الأخلاقية بتقمُّص (شعور الاصطفاء)، وحين تُفضّل أثر القول على حجة القول. هذه (التنظيمات المغلقة) والجماعات التي تتكوّن حول قائد كاريزمي، وتتميّز بعزلة فكرية أو اجتماعية عن المجتمع العام، وبنظام داخلي صارم يقوم على الطاعة المطلقة والولاء الفكري أو العاطفي. غالباً ما تمارس هذه الجماعة أساليب من التأثير النفسي أو الرمزي لتثبيت الانتماء والسيطرة على أعضائها، وتتبنّى تفسيراً منحرفاً للحقيقة أو للخلاص الروحي تتوهّم من خلاله أنّه يُميّزها عن غيرها من الجماعات التقليديّة. في بنية تلك الفرق لا يعلو القائد لأنّ حجّته أعلى، بل لأنّ صورته أعلى: لغة مشحونة، رموز مكثفة، وعدّ مُسرف بالأمان الروحي، واستراتيجية دائمة لإغواء المخيلة، إمّا الأهواء الضالّة حينها تُعبّد الصورة المشوّهة بدل المعنى الحقّ، وقد أشار القرآن إلى هذه الظاهرة بقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ (الجاثية: ٢٣).

هذه البنية النفسية تغلق الباب أمام تبادل الدليل، وتفتح باب تبادل الولاء. ومع الوقت، يُصبح الاعتراض على مدّعي الوصال بالإمام معادلاً لتهمة الاعتراض على الحقيقة نفسها. منطق السلطة هنا لا يعترف بتفكيك الحجّة، لأنّ الحجّة باتت امتيازاً شخصياً؛ ومن ثمّ فإنّ كلّ مساءلة تُقرأ بوصفها خيانة للسرّ وانسلاخاً عن (أهل النور).

### سيكولوجيا المرید.. الحاجة إلى الأب الروحي:

من جهة المرید، لا يدخل الفرد تنظيمًا مغلقًا لأنَّه (أقلُّ عقلاً) بالضرورة، بل لأنَّه أكثر جرحاً أو أقلُّ سندا. الحاجة إلى معنى، والرغبة في يقينٍ سريعٍ، والخوف من العزلة، كلُّها دوافع بشرية طبيعية. التنظيم المغلق يُحوِّل هذه الحاجات إلى عقد ولاء: يمنح هويةً فوريةً، وعائلةً بديلةً، وسُلماً واضحاً للصواب والخطأ. لكنَّ الثمن باهظ: يتنازل الفرد تدريجياً عن حرِّية الاختيار وحقَّ المسافة النقدية، ويستبدل السؤال بمفردات الطاعة.

يتحوَّل (الاطمئنان) إلى مخدِّر معرفيٍّ، ويغدو المجتمع الخارجي مصدرَ تهديدٍ دائمٍ للصورة الجديدة التي بناها التنظيم للذات. هنا ينقلب الرجاء إلى خوف، لأنَّ أيَّ تصدُّع في يقين الجماعة يعني تصدُّعاً في الأمان الشخصي. وبذلك يُصبح الدفاع عن باب المولى أو النُّواب الخُلص دفاعاً عن هويَّة وجودية لا مجرد دفاعٍ عن رأي.

### اللغة والرمز.. صناعة عالم مواز:

كلُّ تنظيم مغلقٍ يصنع لغته. اللغة ليست أداة نقلٍ فحسب، بل أداة خلقٍ للواقع. تُولِّد التنظيمات السريَّة معاجمها الخاصَّة، وتُحمِّل الألفاظ شحناتٍ معياريةً: (الطاعة) تتضخَّم لتبتلع العقل، و(البيعة) تُفهم بوصفها قطيعةً مع كلِّ مرجعيةٍ أُخرى، و(النصرة) تتحوَّل إلى ممرٍّ ماليٍّ وعاطفيٍّ وسلوكيٍّ شاملٍ. يحدث هذا بالتوازي مع إعادة تعريف

الفصل الثاني: من العقيدة إلى التنظيم (متى يبدأ الانحراف؟)..... ٥٩

العدو: العالم الخارجي موضع شبهة، الجيران (أهل الدنيا)، العلماء (فقه الشكل)، والناقد المثقف (حاجز عن النور).

تعمل الرموز كجسورٍ سريعةٍ بين المعنى والانفعال. يشتغل التنظيم على تكثيف الطقس لإنتاج أثرٍ نفسيٍّ قويٍّ: اجتماعاتٌ خفيةٌ بإضاءةٍ منخفضةٍ، تلاواتٌ مختارةٌ، قَصَص (توبة) مُنَمَّقة، شهادات (نورانية)، وتأكيدات جماعية تُنتج إحساساً بالاصطفاء. ومع الوقت، تستبدل الجماعة الواقع بتأويله، وتُصبح الحياة داخل الدائرة أكثر واقعيةً من الحياة خارجها، لأنها أسهل فهماً وأغزر شحنةً عاطفيةً.

### إدارة العزلة.. اقتصاد المعلومات والدوائر المغلقة:

لا تعيش التنظيمات السريّة بلا حدود معلومات. إنَّها تتحكّم في المداخل والمخارج: ما يُقرأ، مَنْ يُسمع، كيف تُفسّر الأخبار، ومتى يُسمح بملاقة الأهل. تتحوّل وسائل الاتصال إلى قنوات رقابة، وتتكدّس داخل الجماعة سردياتٌ جاهزةٌ لأشهر الأسئلة: لماذا يعادوننا؟ لأننا على الحقّ. لماذا يختلف العلماء معنا؟ لأنهم لم يذوقوا النور. لماذا نخسر الأصدقاء؟ لأنّ الطريق إلى السماء ضيق. يغدو الانفصال عن الدوائر الطبيعية للحياة شرطاً لاستدامة الهوية الجديدة، ويُعاد تعريف الصداقة والأسرة بوصفهما (امتحاناً للإخلاص) لا مصدرًا للعافية.

هذه الإدارة للمعلومات ليست تفصيلاً تنظيمياً، بل هي بنية خلاصيّة بديلة: طريق النجاة يمرُّ من بوابةٍ واحدةٍ، وكلُّ نافذةٍ خارجيةٍ

٦٠ ..... سُراقُ الانتظار

هي (ثغرةٌ للظلام). ومع الوقت، يفقد الفرد المسافة المعرفية الضرورية لتقييم الخطاب، لأنَّ كلَّ ما يصل إليه يصل عبر (مصاف) الجماعة.

### غسيل الدماغ.. تفكيك الإرادة ثم إعادة بنائها:

غسيل الدماغ ليس حدثاً مفاجئاً، بل عمليةٌ زمنيةٌ تتدرج من تخفيف المناعة النقدية إلى إعادة تشكيل الذات. يبدأ التفكيك عبر الإرهاق العاطفي واللغوي: تكرار العبارات المفتاحية، تضخيم الذنب، ربط النجاة بالطاعة، وتدوير ذاكرة الفرد حول محاور الجماعة. ثم تأتي مرحلة البناء: شرعنة الطقوس بوصفها (طُرُقاً مختصرةً) إلى الصفاء، تحويل الولاء إلى معيار الأخلاق، وإعادة تدوير التجارب الشخصية لتناسب السردية الكبرى.

هذا المسار ينجح لأنه يعرف كيف يخلط الصدق الوجداني بالاستنتاجات المتعسفة. التجربة الروحية الحقيقية ممكنة، لكنَّ تحويلها إلى برهانٍ ملزمٍ للآخرين يحتاج إلى حجةٍ مشتركةٍ، لا إلى شعورٍ خاصٍ. هنا بالذات تقع القفزة غير المشروعة: الانتقال من الوجد إلى الإلزام. القرآن يضبط هذا الانتقال حين يقول: ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾ (النجم: ٢٨)؛ والظنُّ هنا - مهما اشتدَّ لونه الروحي - لا يتحوَّل إلى حقٍّ عامٍّ إلاَّ بدليلٍ يمكن محاكمته عقلاً ونصاً.

### النصُّ الدينيُّ كأداة.. من التذكرة إلى التبرير:

يُخطئ التنظيم المغلق فهم النصِّ حين يتعامل معه بوصفه مخزوناً

الفصل الثاني: من العقيدة إلى التنظيم (متى يبدأ الانحراف؟)..... ٦١

للتبرير لا رسالة للتذكير. يُقتطع اللفظ من سياقه، ويوكل التأويل إلى (مفتاح واحد)، ويُستعمل الإجماع العاطفي داخل الجماعة غطاءً لإسكات أيِّ قراءةٍ بديلةٍ. يختفي الاشتراك العامُّ في المعنى لصالح تخصيصٍ مغلقٍ: النصُّ لنا، والحقيقة لنا، والتفسير لنا. وهكذا يتحوّل النصُّ من حجّةٍ على الجميع إلى وثيقةٍ ملكيّةٍ.

في المنظور الإمامي الأصيل، النصُّ يُفهم عبر العقل والمنهج، لا عبر المفارقات النفسانيّة. وقد ورد في (كمال الدّين) للصدوق رحمته الله ضمن توقيع الإمام المهدي عليه السلام: «وَأَمَّا الْحَوَادِثُ الْوَاقِعَةُ فَارْجِعُوا فِيهَا إِلَى رِوَاةِ حَدِيثِنَا، فَإِنَّهُمْ حُجَّتِي عَلَيْكُمْ وَأَنَا حُجَّةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ»<sup>(١)</sup>. هذا التوجيه يضع آليّةً علنيّةً لفهم النصِّ وتدبير الواقع، ويُغلق الباب أمام ادّعاءات الوساطة الخاصّة. ثمّ يأتي في توقيع آخر: «أَلَا فَمَنْ ادَّعَى الْمَشَاهِدَةَ قَبْلَ خُرُوجِ السُّفْيَانِيِّ وَالصَّيْحَةَ فَهُوَ كَاذِبٌ مُفْتَرٍ»<sup>(٢)</sup>، وهو حدّ كلاميٌّ قاطع يجعل الزعم الخاصّ بالاتّصال خارج المعيار.

**نقد دعوى الاتّصال بالغيب.. حدود التجربة وواجب البرهان:**

ليس المقصود نفي التجربة الروحيّة الفرديّة، فهذا باب نصّت عليه الشريعة باعتباره حالاً عميقاً بين العبد وربّه. المقصود هو أنّ التجربة ما لم تُعبّر إلى لغة البرهان المشترك تبقى في حيزها، ولا تُنشئ

(١) كمال الدّين (ص ٤٨٤ / باب ٤٥ / ح ٤).

(٢) كمال الدّين (ص ٥١٦ / باب ٤٥ / ح ٤٤).

التزاماً عاماً ولا تُسوّغ مشروعاً تنظيمياً مغلقاً. كلُّ انتقالٍ من التجربة إلى الإلزام يحتاج إلى بيّنة قابلة للمراجعة. وإلاّ تحوّل الدّين إلى إقطاعٍ معرفيٍّ تُدار فيه الموارد الروحية بترخيصٍ شخصيٍّ.

تاريخياً، كانت الغيبة امتحاناً لليقين العقلاني لا ممراً للدّعاء. فهي تُثبت ضرورة المرجعية العلمية العلنية، وتُسقط معيار (السّر) بوصفه طريقاً شرعياً. وبالقياس العقلي، إذا كان الامتحان قائماً على الابتلاء بغياب التعيين المباشر، فإنّ كلَّ مَنْ يدّعي تعييناً خاصاً يهدم موضوع الامتحان من أصله. لذلك فإنّ التنظيم السريّ القائم على (خيرٍ خاصّ) أو (مشاهدةٍ خاصّة) يناقض حكمة الغيبة التي تجعل حجّة الله في زمن السّتر نظام العلم والعدالة، لا مفاتيح غرفٍ مغلقةٍ.

### اقتصاد الولاء.. المال والوقت والجسد:

لا تكتمل بنية التنظيم السريّ بلا اقتصادٍ. الولاء يُترجم مالاً وزمناً وجسداً. تتكاثر الدعوات إلى (التجريد) و(الإنفاق) و(التفرغ)، لكنّها تنصرف في الواقع إلى تمويل البنية وإحكام تبعيتها. يتضاءل العمل والإنتاج، وتتسع دائرة (الخدمات الروحية)، ويصبح الوقت ملكاً للجدول التنظيمي. وفي الحالات القصوى، يُستنزف الجسد بطقوسٍ مرهقةٍ أو بحرمانٍ حسيٍّ بدعوى التدريب، وكلُّ ذلك يُنتج قابليّةً أعلى للتلقّي غير النقدي. وحين يُستدرج الجسد، تُحاصر النفس بإحساسٍ دائمٍ بالذنب أو بالامتياز، وكلاهما يضمن استمرار الارتباط.

الفصل الثاني: من العقيدة إلى التنظيم (متى يبدأ الانحراف؟)..... ٦٣

### النساء والفتيات الهشة.. حين تُستعمل الرحمة قناعاً:

تجد التنظيمات السريّة بيئتها المثلى في هوامش المجتمع: النساء اللواتي يفتقدن السند، المطلقات، الفقراء، المنكسرون عاطفياً، والشباب التائهون بين أعرافٍ متناقضة. تعرض الجماعة ذاتها ملجأً حنوناً، وتعدُّ بترميم المكانة والاعتبار، وتُدير خطاباً يُشعر المنتسب بأنه (مرئيٌّ أخيراً). لكنّ هذا الاحتضان يُدار غالباً بمنطق التملك: تتحوّل الرعاية إلى انقياد، والعلاج إلى اعتمادٍ دائمٍ. كثيراً ما تُستخدم مفرداتٍ رحيمةٍ لتسويغ الوصاية، بل تُزخرف مشاريع (تمكين المرأة) بينما يُعاد تقييدها بنظامٍ سلطويٍّ أشدّ، لا يُجاسب لأنّه يخبئ تحت لغة الصفاء الروحي.

### أثر التنظيم السري على النسيج الاجتماعي.. صناعة العالم الموازي:

يُنتج التنظيم المغلق عوالم موازية: أسواقه الصغيرة، شبكات زواجه، لغته، مهنته (الحلال)، ومواسمه الروحيّة. وفي ظاهر الأمر تبدو هذه العوالم عفيفة ومجتهدة، غير أنّها بمرور الوقت تحلُّ محلّ المجتمع، وتخلق اقتصاداً منغلقاً يرتزق من ذاته ويخاف الانفتاح. تتحوّل الأسرة الممتدّة إلى ذكرى مشوشة، وتفقد الثقة الاجتماعيّة معناها لأنّ معيار الثقة بات داخلياً صرفاً: مَنْ معنا آمن، ومَنْ خارجنا موضع ريبة. وبهذا تنتقل الجماعة من (حركة إيمانيّة) إلى جهاز مراقبةٍ نفسيٍّ واسع النطاق، حيث تُقرأ الابتسامة والغياب والتأخر واللباس علاماتٍ على الولاء أو الفتور.

## البرهان العقلي ضدَّ السريّة.. الغيبة امتحان العلن لا ذريعة الخفاء:

جوهر الحجّة في هذا الفصل يمكن صياغته بعبارة موجزة: الغيبة امتحان العلن. فلو كان مقصود الغيبة فتح قنواتٍ سرّيّةٍ خاصّةٍ لمن شاء، لبطل الامتحان، ولصار التمييز بين الحقّ والباطل شأنًا خاصًا لا شأنًا أُمّتيًا. حكمة الغيبة تجعل المعيار العامّ هو الفيصل: نصُّ تُحاكمه قواعده، وعقلٌ يُدير الاجتهاد، ومرجعيّةٌ ظاهرةٌ تُحمّل المسؤوليّة. أمّا كلّ ما ينعقد في الظلام، ويُنسبُ على ادّعاءٍ شخصيٍّ، ويفرض على الناس التزامًا من غير دليلٍ مشتركٍ، فهو واقعٌ خارج نطاق الحجّة.

يدعم هذا المنطق قول الله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ (البقرة: ١١١)، وهو طلبُ برهانٍ على الدعوى لا على الشعور. والبرهان في المجال العمومي لا يكون من جنس الانفعال الشخصي، بل من جنس الحجّة القابلة للمراجعة. ومن الوجه الشيعي الخاصّ، فإنّ التوقيعين المنقولين في (كمال الدّين) - بوجوب الرجوع إلى رِواية الحديث، وتكذيب دعوى المشاهدة قبل علاماتها الكبرى - يغلقان الباب الفقهي أمام كلّ وساطةٍ غير منصوطة، ويُلزمان الجماعة بمسارٍ معرفيٍّ علنيٍّ.

## تحويل الانتظار إلى مشروع سلطة.. من الرجاء إلى الاستعباد:

تكتمل دائرة الانحراف حين ينجح التنظيم في إعادة تعريف

الفصل الثاني: من العقيدة إلى التنظيم (متى يبدأ الانحراف؟).....٦٥

الانتظار. بدلاً من أن يكون رجاءً يُحرِّك العقل والأخلاق، يُصبح برنامج ولاء يشرعن الإذعان. تتبدّل الأسئلة: (كيف أستعدُّ للعدل؟) إلى (كيف أُثبت ولائي؟). (كيف أعمل؟) إلى (كيف أطيع؟). هنا يغدو المخلص رمزاً مؤجَّراً في خطاب الجماعة، ويصير الظهور أداة تجييشٍ دائمٍ لإبقاء الأعصاب مشدودة على حافة الخوف والأمل، بما يضمن استمرار الحاجة إلى القيادة التي - وحدها - (تفكُّ الألغاز) وتوزع الأدوار.

ليس هذا الانقلاب قضاءً محتوماً؛ إنَّه حصيلة خيارات معرفية: ترك البرهان لصالح الانفعال، واستبدال الحوار بالتلقين، وتقديم السرِّ على العلن. مقاومته تبدأ بإعادة الاعتبار إلى حقِّ السؤال ومسؤولية الفهم وكرامة الضمير.

### معالم المناعة.. العقل التوقيضي والمرجعية العنيفة:

المناعة ضدَّ الانحراف ليست تقنيةً دعائيةً، بل منظورٌ وجوديٌّ. حين يُربى المؤمن على أن الحقَّ لا ينجل من النور، وأنَّ كلَّ دعوى تستكبر على سؤال العقل هي دعوى ناقصة، يُصبح احتمال انزلاقه إلى دائرة التنظيم السريِّ أقلَّ بكثير. تقوم هذه المناعة على ثلاث ركائز تتخلل السلوك دون أن تُختزل إلى شعارات:

- احترام المعيار المشترك في فهم النصِّ.
- وصيانة المسافة النقدية بوصفها فضيلة أخلاقية لا جفاءً.
- وحفظ شبكات الانتماء الطبيعية - الأسرة، الأصدقاء،

المجتمع - لأنّها تُزوّد الإنسان بمرآة خارجيّة يرى فيها نفسه إذا حاولت الجماعة أن تصادر صورته.

من الوجه الفقهي الإمامي، تعني المناعة الالتزام بمسار العلم العلني: فقهٌ يظهر ويُباحث ويُراجع، ورجوعٌ إلى أهل الخبرة كما جاء في التوقيع الشريف، واحترام مقاصد الغيبة التي تجعل الامتحان امتحانَ مسؤوليّة، لا امتحانَ حظوةٍ سرّيّة. والقرآن يردُّنا دائماً إلى الجمع بين العمل والرقابة الأخلاقيّة العامّة: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ (التوبة: ١٠٥)؛ فالنظر (العلني) لعمل المؤمنين يُغلق دائرة الاستبداد التي لا تقوم إلّا حيث تغيب العين المشتركة.

### خاتمة.. استعادة الفكرة من يد البنية:

التنظيم السري حالةٌ طارئةٌ على الفكرة، وليس قدراً ملازماً لها. الفكرة - فكرة العدل الموعود - أبعد من أن تُختزل في جهاز، وأطهر من أن تُساق في ممرّات السرّ. استعادتها تبدأ بردّ الغيب إلى وظيفته التربويّة لا السياسيّة، وإعادة الانتظار إلى معناه العقلي لا الانفعالي. وعندما يعود البرهان إلى مكانته، وتعود المرجعيّة العلنيّة إلى وظيفتها، ويعود المجتمع إلى ثقته بقدرة السؤال على تهذيب الإيمان، تنكمش مساحات التنظيمات المغلقة بوصفها فقاعةً لغويّةً - نفسيّةً لا تصمد في الهواء الطلق.

بهذه الرؤية، يبقى الانتظار فعلاً من أفعال الحرّيّة: حرّيّة العقل

الفصل الثاني: من العقيدة إلى التنظيم (متى يبدأ الانحراف؟).....٦٧

من الخرافة، وحرية الروح من الأتجار، وحرية المجتمع من الانغلاق. ويعود المخلص رمزاً لما كان دائماً: ذروة أخلاقية لا وسيلة تسويغ لسلطة البشر على ضمائر البشر. وإذا كان لا بدّ من علامة فارقة بين الإيمان والتنظيم السري، فهي أنّ الإيمان يُوسّع صدرك للدليل، بينما يُضيّق التنظيم صدرك إلا على الصوت الواحد.

\* \* \*



الفصل الثالث:

## هندسة السيطرة

غسيل الدماغ وإدارة الوعي في المنظمات المهدوية السرية



## القسم الأول: فلسفة الاتصال الخاص وهيمنة القداسة:

منذ أن وُلِدَ الإنسان في حيرته الأولى، ظلَّ يبحث عن نافذة تفتح بينه وبين الغيب. هذه الحاجة القديمة إلى السمو، إلى تجاوز محدودية الجسد، هي التي تجعل فكرة الاتصال بالعالم الأعلى إحدى أكثر الأفكار سحراً وقدرةً على الهيمنة في الوقت نفسه. وفي كلِّ عصرٍ، حين يضيق الأفق أمام الوعي الديني، يظهر مَنْ يدَّعي أنه صاحبُ تلك النافذة، وأنه وحده يعرف الطريق إلى السماء. في التنظيمات المهدوية السريّة، يأخذ هذا الادّعاء شكلاً متقناً: يُعاد تأسيس العلاقة بين الإنسان والغيب من خلال (وسيطٍ) يُنصبُّ نفسه حلقةً متصلةً بين الوجود الأرضي والولاية الغيبية.

هكذا تخلق بنية فكرية كاملة تقوم على فلسفة (الاتصال الخاص)، التي ليست مجرد تجربة روحية عابرة، بل منظومة معرفةٍ بديلةٍ، تتجاوز النصّ والعقل والبرهان إلى ما يُسمّى (الإلهام المباشر) أو (الخطُّ الإلهي المسموع).

فلسفة الاتصال الخاص هي أخطرُ ما أنتجته هذه التنظيمات لأنها تقلبُ وظيفة الدين رأساً على عقب. فبدل أن يكون الدين وسيلةً تحريضٍ على التفكير، يُصبح أداةً لإغلاقه، وبدل أن تكون الغاية من

الإيمان البحث عن الله، تتحوّل إلى البحث عن الشخص الذي يتّصل بالله). في لحظة كهذه ينشأ ما يمكن تسميته: (استبداد الوحي)، حيث تُلغى جميع وسائل المعرفة - النص، الفقه، الإجماع، العقل - لصالح واسطة بشرية تدّعي أنّها (امتدادٌ مباشرٌ للغيب). عند هذه النقطة تتوقّف حركة الاجتهاد وتُجمّد أدوات التفكير، لأنّ كلّ محاولة للفهم تُقابل بتهمة التشكيك في (السرّ المقدّس).

الوسيط في هذه الفلسفة ليس معلماً، بل قناة عبور. إنّه الحبل الذي يربط الأرض بالسماء، والمجرى الذي تنحدر عبره التعاليم من العالم الغيبي إلى العالم المادّي. لكنّه في الوقت ذاته يُصبح (باباً محروساً)، إذ لا يجوز الاقتراب منه إلاّ بشروطٍ من الطهارة الفكرية والطاعة المطلقة. ومن هنا يبدأ بناء القداسة المنهجية: كلّما ازداد غموض الوسيط، ازداد سلطانه، وكلّما صعب الوصول إليه، تعاظمت رمزيّته. في الخطاب الداخلي للتنظيمات المهدوية يُصوّر هذا الوسيط بوصفه كائناً بين العالمين، يعيش بجسدٍ على الأرض وروح في السماء، يزور الإمام المهدي ﷺ أسبوعياً، ويتلقّى منه الأوامر والتعليمات التي يجب أن تُنفذ بلا نقاش. وهكذا، فإنّ طاعته لا تُعتبر طاعةً لشخصه، بل طاعةً للإمام نفسه.

هذه البنية تنتج علاقةً جديدةً بين المقدّس والإنسان: علاقةً من نوع التبعية الميتافيزيقية. فالمرید لم يعد يتعامل مع بشرٍ يُخطئ ويُصيب، بل مع كائنٍ (مفوضٍ) يملك تفويضاً ميتافيزيقياً لا يُراجع. وبذلك

الفصل الثالث: هندسة السيطرة (غسيل الدماغ وإدارة الوعي في التنظيمات المهدوية السريّة) ..... ٧٣

يُستبدل الإيمان بالله بالإيمان بالواسطة. هذا ما يجعل فلسفة الاتصال الخاصّ ليست مجرد انحرافٍ فكريّ، بل انقلاباً في بنية السلطة الدينيّة. فبدلاً من أن تُقاس الحقيقة بميزان النصّ والعقل، يُقاس النصّ والعقل بميزان ما يقوله الوسيط. وفي اللحظة التي يُصبح فيها الإنسان مجرد تابعٍ لحقيقةٍ لا يملك أدوات اختبارها، تنشأ بنية الاستبداد الروحي التي هي أخطر من الاستبداد السياسي، لأنّها تشتغل داخل الضمير، لا فوقه.

في التراث الإسلامي العميق، بقيت العلاقة بين الغيب والإنسان علاقة تكليفٍ ومسؤوليّة. النصوص تُؤكد أنّ باب الغيب ليس مفتوحاً إلاّ بالقدر الذي يُحقّق الهداية، لا بالقدر الذي يُلغي المحنة. لذلك كانت الفتوى، في نظام الاجتهاد، تُمثل صوت العقل العمومي، أي محاولة المجتمع المؤمن لأنّ يترجم النصوص وفق ضوابط عقلية ولغوية متاحة للجميع. لكن التنظيم المهدوي السريّ حين يُقدّم (الاتصال الخاصّ) كبديلٍ عن الفتوى، يَنزِعُ من الجماعة حقّها في التفكير المشترك، ويُحوّل الدين إلى منظومة عموديّة يتحكّم فيها شخصٌ واحدٌ. إنّها عودة إلى النموذج الكهنوتي الذي كان يستغلّ الناس روحياً ويصادر الوعي الجماعي، حيث المعرفة تُمنح لا تُكتسب، ويُنظر إلى الاجتهاد لا بوصفه فعلٌ بحثيّ، بل فعلٌ تمرّد.

حين يتحوّل الاتصال الخاصّ إلى سلطة ناطقة باسم الغيب، لا تبقى هناك حاجة إلى القياس ولا إلى المناظرة، لأنّ كلّ سؤالٍ يُصبح

تعدّياً على السرِّ. هكذا يتكوّن في وعي المرید (حجاب معرفي) يحول بينه وبين التفكير الحرِّ. فالوسيط لا ينقل رسالةً يمكن نقدها، بل (حقيقة مطلقة) لا تُناقش. ومع الزمن يتكوّن لدى الأتباع إحساسٌ بأنّ التفكير ذاته نوعٌ من الخيانة، وأنّ التساؤل خطيئةٌ عقليةٌ. ومن هنا تنشأ ما يمكن تسميتها بـ (الطاعة الغيبية)، التي لا تتطلّب دليلاً بل حضوراً وجدانياً مطلقاً. هذا الحضور هو النواة النفسية التي يقوم عليها غسل الدماغ في هذه التنظيمات، إذ يُعاد تعريف الإيمان بوصفه تسليماً لا عقل فيه، لا بحثاً عن اليقين.

يتمُّ بناء هذه الفلسفة عبر لغةٍ دقيقةٍ ومُتقنةٍ. فهي لا تدّعي في البداية أمّها (تغني عن الفتوى)، بل توحى بأنّها (تكملها). غير أنّ هذا التكامل المزعوم سرعان ما يتحوّل إلى إلغاء. فالمرید يُلقّن أنّ الفتوى ناقصةٌ لأنّها تصدر عن عقل لم يُشرف برؤية الإمام، وأنّ الاجتهاد البشري مهما بلغ من الدقّة فهو ظنيّ، بينما (الرسالة التي تُتلى من الغيب) يقينٌ لا يشوبه الشكُّ. ومع الوقت، يتعمّق هذا الإحساس بالفارق حتّى يُصبح قاعدةً معرفيةً: ما لم يصدر من الوسيط فهو ناقص، وما صدر منه فهو نهائيّ. وفي هذه النقطة بالذات تُحتزل كلُّ منظومة التفكير في شخصٍ واحدٍ، فيُصادر العقل الجمعي كما تُصادر الحرّية الداخليّة.

الوسيط لا يدّعي العصمة بالمعنى الفقهي المباشر، لكنّه يمارسها عملياً. فكلُّ فعلٍ يصدر عنه يُفسّر على أنّ له (بُعداً سرّانياً). وإذا أخطأ،

الفصل الثالث: هندسة السيطرة (غسيل الدماغ وإدارة الوعي في التنظيمات المهدوية السريّة) ..... ٧٥

قيل: إنَّ خطأه جزءٌ من الامتحان، وإنَّ الإمام أراد به أن يُختبر صبر المريدين. وبذلك تتشكَّل دائرة مغلقة لا يمكن كسرها: كلُّ ما يصدر عنه حقٌّ، وإنَّ بدا باطلاً فباطله امتحان. هذه المنظومة تُحصَّن نفسها ضدَّ النقد عبر توظيف الرمزيَّة الغيبية: إنكار القائد يُصبح إنكاراً للغيب ذاته. هكذا يُلغى الفرق بين الشخص والفكرة، ويُصبح الإيمان بالمهدي مرهوناً بالإيمان بوسيطه.

ولأنَّ هذه البنية تحتاج إلى حماية نفسيَّة، تُزرع في ذهن المريد فكرةٌ مركزيَّة: أنَّ حماية الوسيط هي حمايةٌ للإمام نفسه، وأنَّ أيَّ شكٍّ في الوسيط هو طعنةٌ في جسد الولاية. بهذا المنطق تُبنى العقيدة الدفاعية داخل التنظيم، حيث يتحوَّل الولاء إلى عقيدة أمنيَّة، ويُصبح الدفاع عن (باب المولى) واجباً مقدَّساً. في الخطاب الداخلي يسمُّون الوسيط (اليمني) أو (الحجِّي)، ويُروى عنه أنه يُبلغ أوامر الإمام أسبوعياً، وأنه يتلقَّى إشاراتٍ في المنام أو في لحظات الكشف. هذه السرديات لا تُقدَّم على أنَّها رمزيَّة، بل على أنَّها وقائع حقيقيَّة، يُكفَّر مَنْ يشكُّ فيها.

بهذه الطريقة يتحوَّل (الاتِّصال الخاصُّ) إلى مؤسَّسة كاملة تُدار بالعاطفة والهيبه. ويُعاد إنتاجها يومياً من خلال الطقوس، والدروس السريَّة، وحلقات الذكر التي تتكرَّر فيها مفردات (الصفاء)، (البيعة)، (السِّرِّ)، (الولاية)، و(الوصيِّ). هذه المفردات تعمل بوصفها مفاتيح برمجيَّة للذهن، تُغلق منافذ التفكير الحرِّ، وتستبدلها بدوائر مغلقة من المعنى. ومع الوقت، لا يعود الأتباع يرون في الوسيط شخصاً قابلاً

للنقد، بل كياناً كونياً تجتمع فيه أوامر السماء وحكمة الأرض. إنَّها لحظة الذوبان المعرفي التي تحدَّثتُ عنها سابقاً باسم (عملية غسيل الدماغ)، حين يُذاب العقل في حرارة الإيوان.

لكن أخطر ما في هذه الفلسفة أنَّها تُعيد تعريف الصدق. فالصدق في التجربة الإنسانيَّة يقوم على مطابقة القول للواقع، أمَّا في هذه المنظومة فالمعيار هو (النية في طاعة الوسيط). فإذا أخلصت في الطاعة، فأنت صادق، حتَّى وإن كانت الأوامر باطلة. وبذلك يتفكك الضمير الأخلاقي ويُعاد تركيبه على أساس جديد: الحقُّ هو ما يأمر به المولى، والخطأ هو ما يتعد عن مساره. وحين يصل المرید إلى هذه الدرجة من التماهي، يصبح قابلاً لأيِّ توجيهٍ مهما كان متناقضاً مع العقل أو الشريعة، لأنَّ المعيار لم يعد هو المبدأ، بل الشخص.

في هذه النقطة تبدأ الهندسة الدقيقة للسيطرة. فالتنظيم يُدرك أنَّ الإنسان لا يُستعبد إلا حين يؤمن أنَّه حرٌّ. لذلك يُمنح المرید وهم الاختيار: يُحَيَّر في تفاصيل صغيرة متى يحضر، أين يجلس، أيِّ كتاب يقرأ لكنَّه لا يملك الخيار في القضايا الجوهرية التي تتعلَّق بالفكر أو الولاء. هكذا يتشكَّل ما يمكن تسميته (الحرية المشروطة)، وهي أداة فعالة في البرمجة النفسيَّة: تترك للعقل هامشاً ضيقاً للحركة حتَّى يظنَّ أنَّه يفكر، بينما يُعاد توجيه مساره ضمن حدودٍ غير مرئية.

الوسيط، في هذا السياق، ليس فقط رمزاً دينياً، بل أيضاً نقطة تحكم معرفي. فكلُّ فكرة جديدة تمرُّ عبره، وكلُّ تفسير للنصوص يُفلتر

الفصل الثالث: هندسة السيطرة (غسيل الدماغ وإدارة الوعي في التنظيمات المهدوية السريّة) ..... ٧٧

من خلاله، حتّى يضمن أن لا يدخل إلى الجماعة ما قد يُضعف سلطانه. والذين يحاولون تجاوز هذا الحاجز يُتَّهمون بأنهم (فتحوا قلوبهم للظلام). إنّها لغة مصمّمة لتخويف العقل، ولتربط بين النقد والضلال، وبين السؤال والخيانة. وهكذا يُعاد تشكيل الوعي على أساس الخوف المقدّس.

الفلسفة التي تقوم عليها هذه السيطرة ليست مادّيّة ولا نفسيّة فقط، بل ميتافيزيقيّة في جوهرها. فالفرد في التنظيم لا يرى نفسه تابعاً لهيأة بشريّة، بل عضواً في شبكةٍ كونيّة تقودها يد الغيب. هذه الرؤية تمنح إحساساً عميقاً بالمعنى، وهو ما يجعل التحرُّر منها صعباً. فالمريد لا يخشى فقدان جماعته فحسب، بل يخشى أن ينقطع عن السماء. لذلك فإنّ الإقناع العقلي لا يكفي لمواجهة هذه البنية، لأنّ الخوف الذي تُشكِّله ليس خوفاً من السلطة، بل من السقوط من الرحمة. وهنا تتجلّى عبقرية هذه التنظيمات في تحويل الإلهيات إلى هندسة للوعي، والإيمان إلى أداة للضبط.

لقد كان الدّين عبر التاريخ وسيلةً للارتقاء بالضمير، لكن حين يتحوّل إلى منظومة تحرس نفسها بقداسةٍ مصطنعةٍ، يُصبح سجنًا للروح. في هذا المعنى، فإنّ فلسفة الاتّصال الخاصّ تُمثّل لحظة انحرافٍ خطيرةٍ في تاريخ الفكرة المهدويّة. فبدل أن يكون المهدي رمزاً للعدل المنتظر، يُصبح ظلّاً يُستخدم لتبرير كلّ سلطة. وبدل أن تكون الغيبة دعوةً للوعي والانتظار الأخلاقي، تتحوّل إلى ذريعة لتأسيس كهنوت

جديد، كهنوت يتحدّث باسم الإمام لكنّه يمارس فعل الاستبداد باسمه.

إنّ هذا التحليل لا ينفي إمكان التجربة الروحيّة الصادقة، لكنّه يُفرّق بين التجربة التي تُنير الطريق والتجربة التي تُغلقه. التجربة الأولى تُعيد الإنسان إلى نفسه وتمنحه مساحةً للتأمّل، أمّا الثانية فتأخذه من نفسه وتضعه في مدار شخصٍ آخر. الأولى تُنتج تفكُّراً، والثانية تُنتج طاعةً عمياء. الأولى تجعل القلب باباً للمعرفة، والثانية تجعله قيداً عليها. وبين هذين الطريقين تدور معركة الوعي في زماننا: هل يكون الإيمان طريقاً إلى الله أم طريقاً إلى الوسيط الذي يدّعي أنّ الله يُحدّثه كلّ أسبوع؟!

بهذه الإشكاليّة يفتح هذا الفصل ليقراً (الهندسة الخفيّة) التي تشتغل داخل التنظيمات المهدويّة السريّة، تلك الهندسة التي تبدأ من فلسفة الاتّصال وتنتهي عند عمليّة غسيل الدماغ. في الأقسام التالية سأتناول كيف تُدار هذه البنية من الداخل، وكيف تُقسّم إلى دوائر أمنيّة متراكبة تحمي المركز كما تُقدّس السرّ، وكيف يُبرمج الأتباع على الإنكار الشديد لكلّ ما يُهدّد صورة باب المولى، حتّى يُصبح الدفاع عنه ليس واجباً تنظيمياً فحسب، بل شعيرةً من شعائر الإيمان.

**القسم الثاني: البنية الداخليّة للتنظيمات المهدويّة.. من الدائرة إلى المركز العقائدي:**

حين نتقل من البعد الفلسفي إلى البنية الداخليّة، ندرك أنّ هذه

الفصل الثالث: هندسة السيطرة (غسيل الدماغ وإدارة الوعي في التنظيمات المهدوية السريّة) ..... ٧٩

التنظيمات لا تقوم على الفوضى ولا على الارتجال، بل على هندسة دقيقة يمكن وصفها بأنها (معمارٌ لاهوتيٌّ أمنيٌّ). المعمار هنا ليس مادياً؛ إنه شبكة من الدوائر، تُبنى كلُّ واحدة فوق الأخرى، كما تُبنى حُجُب النور في الروايات الغيبية. لكلِّ دائرة لغتها، وشروطها، وأسلوبها في الولاء، ودرجة من القرب من المركز الأعلى، الذي يسمونه (الوسيط) أو (النقطة العليا في الهيكل السري). هذه الهندسة تُخفي وراءها نظاماً محكماً للسيطرة، حيث يُدار العقل الإنساني بنفس دقة إدارة الأجهزة الأمنية، ولكن بلغة روحانية.

تبدأ الدائرة الأولى من حيث يظنُّ الناس أن الدين يبدأ: من الحُبِّ. فالوافد الجديد يُستقبل بعناقٍ رمزيٍّ، ودفءٍ غير مألوف، وإحساسٍ بأنَّ القدر قاده إلى جماعةٍ مختارةٍ دون غيرها. هنا تُزرع البذرة الأولى: الشعور بالاصطفاء. فكلُّ مَنْ يدخل الجماعة يُقال له: إنَّ الإمام اختاره من بين الملايين. هذه الفكرة وحدها كافية لتغيير هندسة الوعي. الإنسان الذي عاش عمره يحاول أن يجد معنىً لوجوده، يجد فجأةً أنَّ معناه قد أُعطي له جاهزاً، وأنَّ له مكانةً بين (المختارين). وهكذا تبدأ أولى مراحل السيطرة: السيطرة بالاصطفاء، لا بالقهر.

لكنَّ الاصطفاء يحتاج إلى اختبارٍ دائم. لذلك تُفتح أمام العضو الجديد سلسلة من التجارب المتصاعدة: طقوس من الصمت، حلقات ذكرٍ طويلة، تعليمات خاصّة باللباس والكلام، ثمَّ سلسلة من الأسرار الصغيرة التي تُلقن له على مراحل. كلُّ سرٍّ جديد يُقدّم كعطية من

الغيب، لا كاختبارٍ للولاء، لكنّه في الحقيقة أداة لقياس مدى الطاعة. فالعضو الذي يحتفظ بالسّر دون أن يفشيه يُعدُّ مؤهلاً للعبور إلى الدائرة التالية، وهكذا تُبنى الثقة خطوةً بخطوة. وفي كلّ عبورٍ جديد، يزداد إحساس المرید بأنّه يقترب من مركز النور، وأنّ ما يراه من أسرار ليس إلاّ تمهيداً للرؤية الوسيط نفسه.

تتكرّر هذه العمليّة حتّى يصل المرید إلى ما يمكن تسميته بـ (دائرة الأمان الأولى) وهي الطبقة التي يُسمح لها بالاتّصال شبه المباشر بالمقرّبين من المركز العقائدي الأعلى. هنا يبدأ التنظيم في كشف طبيعته الأمنيّة الحقيقيّة. فالأوامر لا تُعطى مباشرةً، بل عبر سلاسل من الاتّصالات الرمزيّة، حيث تُرسل الشفرات بعباراتٍ دينيّةٍ مشفرةٍ: (أمرنا أن نحفظ الصفاء)، (وردت إشارة من النور بأن نمتنع عن المخالطة)، (الطريق الآن إلى التمحيص)، إلى غير ذلك من الإشارات التي لا يفهمها إلاّ مَنْ تَمَّت برمجته على فك رموزها. إنّها لغةٌ تواطؤ عقائديٍّ تُحوّل التنظيم إلى جهازٍ ذي قنواتٍ سرّيّةٍ محكومةٍ بالرمز والولاء.

هذه البنية تُشبه خلايا العسل في دقّتها وتماسكها. كلّ خليّة مرتبطةٌ بالأخرى عبر شعورٍ روحيٍّ، لا عبر تعلّيماتٍ مكتوبةٍ. فالمرید لا يحتاج إلى مراقبٍ خارجيٍّ، لأنّ المراقبة الداخليّة - مراقبة الضمير المشفر بالعقيدة - كافيةٌ لجعله يسير كما يُراد له. هذه هي قَمّة غسيل الدماغ: حين يتحوّل الإكراه إلى طاعةٍ طوعيّةٍ مُحبّةٍ، وحين تُمارس

الفصل الثالث: هندسة السيطرة (غسيل الدماغ وإدارة الوعي في التنظيمات المهدوية السريّة) ..... ٨١

السلطة عبر الوجدان لا عبر العصا. والوسيط، الذي يتربّع في المركز، لا يحتاج إلى معاقبة أحد، لأنّ أتباعه يعاقبون أنفسهم حين يخطر في بالهم الشكُّ.

في هذا المعمار الروحيّ الأمنيّ، تتجلى فلسفة (الدوائر المترابطة). فالانتماء في هذه الجماعات ليس خطأ صاعداً نحو القيادة، بل حركة دائريّة نحو السرِّ. كلُّ دائرة تُمثّل مستوى أقرب من السرِّ المركزي، وكلُّ انتقالٍ من دائرة إلى أخرى هو انتقالٌ من عالم إلى عالم. ولهذا السبب يُسمّى المرید (سالِكاً)، لأنّ طريقه ليس طريق الترقّي الاجتماعيّ، بل طريق العبور الروحيّ نحو (الحضور في النور). في الدائرة الأخيرة دائرة (الوسيط) تختفي اللغة البشريّة تماماً، لتحلّ محلّها لغة الغيب. ومن هنا تبدأ مرحلة (الإنكار المبرمج).

الإنكار المبرمج ليس رفضاً عابراً للنقد أو الشكِّ، بل منظومة دفاعيّة متكاملة تُزرع في الذهن كجزءٍ من العقيدة. المرید يُربّى منذ المراحل الأولى على أنّ الشكَّ هو أوّل بوابة للظلام، وأنّ مَنْ يشكُّ في الوسيط يشكُّ في الإمام، ومَنْ يشكُّ في الإمام يشكُّ في الله. بهذا التدرُّج تُغلّق كلُّ منافذ التفكير، ويُعاد تعريف الإنكار ذاته بوصفه عبادة: أن تُنكر كلّ ما يُهدّد صورة الوسيط هو نوعٌ من الذّكر، وأنّ تُدافع عن قداسته هو نوعٌ من الجهاد. لذلك فإنّ حماية الوسيط لا تُصوّر كواجبٍ تنظيميٍّ بل كتكليفٍ روحيٍّ، يُقاس به الإيمان.

في أدبيّات هذه التنظيمات نقرأ عباراتٍ من نوع: (حماية النور

واجب كلُّ مَنْ ذاق العسل)، أو (مَنْ أراد وجه الإمام فليحفظ قناته إلى الأرض). هذه العبارات البسيطة تخلق إحساساً بأنَّ الدفاع عن الوسيط ليس دفاعاً عن شخص، بل عن القناة الوحيدة التي تربط الوجود بالسماء. في المخيال الجمعي للمريدين، الوسيط هو (الروح الممدودة)، هو الذي يتلقَّى أوامر الإمام أسبوعياً، وربَّما يومياً، وينقلها إلى الأرض كما ينقل القلب الدم إلى الجسد. وإذا سقط هذا القلب، مات الجسد كله. لذلك فإنَّ حماية الوسيط تُمنح طابعاً قدسياً يتجاوز كلَّ منطقي. كلُّ خطأ يرتكبه يُبرَّر بأنَّه لحكمةٍ لا يعرفها إلا مَنْ كلَّفه الإمام. بل إنَّ فشل التنظيم أو وقوع بعض أعضائه في فضائح أو انقساماتٍ لا يُعدُّ دليلاً على بطلانه، بل (تمحيصاً) للمؤمنين الحقيقيين، تماماً كما يختبر الله عباده بالمصائب.

وهكذا، تتحوَّل القداسة إلى نظامٍ دفاعيٍّ محكم، يُبرمج المرید على الإنكار الشديد لأيِّ احتمالٍ يُضعف صورة الوسيط. فإذا ظهرت أدلَّة عقليةٌ أو فقهيةٌ تُنقض ادعاء الاتِّصال، قيل: إنَّ العقول قاصرة عن إدراك أسرار الولاية. وإذا انكشف تلاعبٌ ماليٌّ أو أخلاقيٌّ، قيل: إنَّ الإمام أراد به سترًا لامتحان النفوس. وإذا انسحب أحد الأعضاء وأفصح عن الأسرار، وُصِفَ بأنَّه (وقع في الظلام) أو (أصابته اللعنة). بهذا الأسلوب تُغلق الدائرة بإحكام: لا شيء يمكن أن يززعها، لأنَّ كلُّ ما يُقال ضدها يتحوَّل فوراً إلى دليلٍ على صدقها. في قلب هذه الهندسة الأمنية توجد السريَّة بوصفها إلهاً خفياً.

الفصل الثالث: هندسة السيطرة (غسيل الدماغ وإدارة الوعي في التنظيمات المهدوية السريّة) ..... ٨٣

فالسّر هنا ليس وسيلة حماية فقط، بل جزء من العبادة. يُربّي المريد على أنّ حفظ السّر هو حفظ للنور، وأنّ إفشائه خيانة للإمام نفسه. ولأنّ الإنسان يميل إلى الشعور بالتميّز، فإنّ امتلاكه لسّر لا يعرفه غيره يجعله يشعر بكرامة خاصّة، وكأنّه يشارك في خطة كونية لا يعرفها سوى القليل من المختارين. وهكذا تتحوّل السريّة إلى إلهٍ نفسيّ يُولد الثبات داخل التنظيم. فالمريد لا يلتزم فقط بالعقيدة، بل أيضاً بمكانته الرمزية داخل (الدوائر الخفية). كلّما عرف أكثر، شعر بأنّ عليه أن يصمت أكثر. وكلّما ازداد صمته، ازداد إخلاصه. بهذا التواطؤ بين السّر والرغبة تُصنّع واحدة من أكثر آليات السيطرة فعاليةً في تاريخ الأديان المغلقة.

تتخذ هذه السريّة أحياناً أشكالاً مادية: رموزٌ تُكتب على الأوراق، إشاراتٌ بالأيدي، كلمات مرورٍ غيبية، لقاءات في أماكن محدّدة لا يُفصح عنها. لكنّها في جوهرها عملية معرفية: إنّها (عزل الوعي) لا (عزل الجسد). فالمريد قد يعيش في قلب المجتمع، لكنه يعيش بعقلٍ منغلِقٍ على نفسه، يرى العالم من خلال نوافذ التنظيم فقط. ما يُعرّض عليه من الخارج لا يدخل وعيه إلا بعد أن يُعاد تفسيره ضمن قاموس الجماعة. فإذا قرأ نقداً للتنظيم في الصُّحف أو شاهد برنامجاً تحليلياً، فسوف يرى فيه (حملةً شيطانيةً) ضدّ الإمام، لا مادّة للنقاش. وهنا تتجلّى عبقرية هذه البرمجة على الإنكار: إنّها لا تمنع المعلومة من الوصول، بل تمنع معناها من التكوّن.

الدوائر الأمنية المحيطة بالوسيط تُدار بأسلوبٍ يشبه تماماً عمل الأجهزة الاستخباراتية. هناك دوائر للرصد، ودوائر للمراقبة، ودوائر للاتصال، ودوائر للتحصين الداخلي. يُمنح كلُّ عضوٍ قدرًا محدوداً من المعرفة لا يتجاوزه، ويُمنع من التواصل المباشر مع مَنْ فوقه أو تحته إلاّ عبر قنواتٍ محدّدة. هذا الأسلوب لا يحمي التنظيم من الاختراق فحسب، بل يُنشئ في الوقت نفسه نظاماً نفسياً دقيقاً، حيث يتعوّد الفرد على طاعة الأوامر دون معرفة الأسباب. وهكذا يُعاد تشكيله ليُصبح (ترساً) في آلةٍ روحيةٍ ضخمةٍ تُدار من المركز.

في هذا المركز، عند النقطة العليا في الهيكل السري، تُدار (العمليات الكبرى). هذه العمليات ليست عسكريةً بالمعنى المادّي، بل (أمنيةً) بالمعنى العقائدي. تتضمّن مراقبة الأعضاء المشكوك في ولائهم، تحليل ردود أفعالهم، وتوجيه الخطاب الداخلي بناءً على تلك التحليلات، وإرسال رسائل رمزية إلى الخارج تُظهر الجماعة بمظهر دينيٍّ نقيٍّ. في بعض الحالات، يُنشئ التنظيم واجهاتٍ خيريةً وثقافيةً لتغطية نشاطه، بحيث يبدو كجمعيةٍ للوعظ أو الإصلاح الاجتماعيّ، بينما جوهره الحقيقيُّ قائمٌ على إدارة الاتصال المزعوم بين الغيب والوجود.

الذين يعملون في هذه الدائرة العليا يُسمّون (حماة النور). وظيفتهم حماية الوسيط من كلِّ تهديدٍ، مادّيٍّ أو رمزيٍّ أو إعلاميٍّ. في نظرهم، أيُّ مساسٍ بقداسة المركز العقائدي هو مساسٌ بالعقيدة

الفصل الثالث: هندسة السيطرة (غسيل الدماغ وإدارة الوعي في التنظيمات المهدوية السريّة) ..... ٨٥

نفسها. لذلك تُمنَح لهم صلاحيّاتٌ استثنائيةٌ، وقد تُبرَّر لهم تصرُّفاتٌ خارجة عن القانون بحجّة الدفاع عن (الحبل المتّصل بين الأرض والسماء). إنّها آليّة تبريرٍ كاملة تخلق ما يشبه الحصانة الروحية المطلقة. فلا أحد يُحاسب الحارس الذي يزود عن النور، لأنّ الحراسة نفسها عبادة. في هذا المستوى من الوعي تتحوّل الأخلاق إلى أدواتٍ نسبيّة، يُحدِّدها الوسيط وفق المصلحة العليا للغيب، ويُعفى الأتباع من الضمير الفرديّ لأنّ الطاعة حَجَبَتَه بالكامل.

بهذه الكيفيّة يتكوّن داخل التنظيم نظامٌ مغلقٌ على ذاته، تتفاعل فيه العقيدة والأمن والنفس في دورةٍ واحدةٍ. لا فرق بين الطاعة الدنيويّة والطاعة الأمنيّة، ولا بين الولاء العقائديّ والانضباط التنظيميّ. فكلُّها تصبُّ في غايةٍ واحدةٍ: حماية المركز الذي يُصوّر على أنّه (جسر الغيب). هذه الغاية تُقدّم باعتبارها أسمى من كلّ غاية، لأنّ سقوط الجسر يعني انقطاع السماء عن الأرض. وهنا يصل غسيل الدماغ إلى ذروته القصوى: حين يُقنع الإنسان نفسه بأنّ الدفاع عن السلطة هو دفاع عن الله.

في الأقسام التالية، سيّضح كيف تتحوّل هذه البنية النفسيّة واللغويّة إلى واقع عصبيّ ووجدانيّ معقّد، وكيف تترك آثاراً بعيدة المدى على الذاكرة، والتفكير، والهويّة، وصولاً إلى اللحظة التي يفقد فيها الإنسان ذاته ليصبح جزءاً من كيانٍ أكبر منه، كقطرةٍ في محيطٍ من الطاعة.

\* \* \*



الفصل الرابع:

## هندسة العزلة

من الجماعة إلى العالم الموازي



حين نتحدّث عن العزلة في سياق هذا الفصل، فإنّ المقصود منها ليس الانعزال الجسدي أو الانسحاب من المجتمع في صورته الماديّة. فأعضاء التنظيمات السريّة المنحرفة، وخصوصاً تلك التي تتبنّى الخطاب المهدويّ المنحرف، لا يعيشون في كهوف أو خلف الأسوار، بل يتغلغلون في البنية الاجتماعيّة ذاتها التي يدعون إصلاحها. تراهم يشاركون في الأنشطة الخيريّة، ويتظاهرون بالانخراط في ساحات العمل الاجتماعي، ويدعمون قضايا البيئة وحقوق الإنسان وحقوق المرأة، بل ويتواجدون في بعض التجمّعات العائليّة والدوائر المدنيّة، فيبدون للعيان كجزءٍ طبيعيٍّ من النسيج العامّ.

لكنّ هذا الاندماج ليس إلّا واجهة تميّهية لعزلةٍ من نوع آخر، أشدّ خطراً وأعمق أثراً: العزلة الفكريّة والوجدانيّة. فبينما يتواصل الجسد مع المجتمع، ينفصل الوعي عن الآخرين ضمن هندسةٍ فكريّةٍ مقصودةٍ ومدروسةٍ بعناية. فالعقيدة لديهم سرّيّة، والأجندة مخفيّة، والخطّة محجوبة، وحتىّ البسمات والتفاعلات الاجتماعيّة ليست عفويّة، بل محكومة بتعليقاتٍ مسبقةٍ وتكتيكٍ منظمٍ يُجدّد متى يُظهرون اللين، ومتى يُمارسون الصمت، ومتى يُثيرون الحماسة أو الشكّ في الآخرين.

بهذا المعنى، تُصبح العزلة ليست ابتعاداً عن الناس، بل ابتعاداً عن الصدق في العلاقة مع الناس. إنَّها عزلةٌ في جوهر الوعي، حيث يتحوّل الفرد إلى كائنٍ مزدوج: يتكلّم لغة المجتمع في العلن، ويؤمن بخطابٍ موازٍ في السرّ. ومن هنا تنشأ أخطر أشكال الانقسام النفسي والاجتماعي، إذ يتداخل التدنُّن الزائف مع البراغماتيّة، فيتحوّل الانخراط الاجتماعي إلى أداةٍ للاختراق لا للمشاركة، وللتأثير لا للتفاعل.

كانت من بين الشهادات اللافئة شهادةٌ إحدى النساء اللواتي تحرّرن من أسر أحد التنظيمات السريّة المهدويّة المنحرفة. روت أنّها كانت تُكلّف من (القيادة النسويّة) المرتبطة بما يُعرف بـ (باب المولى) بمهامّ محدّدة: حضور مجالس العزاء لتعزية الفاقدين، والإغداق العاطفي على بعض العوائل التجاريّة في الزيارات، والمشاركة في أنشطة ثقافيّة داخل نادٍ للقراءة أو مكتبٍ عامّ، إلى جانب الحضور المنتظم في نادٍ صحيّ والمشاركة في جلسات تدريبٍ رياضي من نوع (Aerobics) الرياضة الأوكسجينية) للتقرب من فئاتٍ محدّدة من النساء. وكلُّ ذلك كان يُقدّم لها على أنّه (تكليف مباشر من الإمام المهدي). كانت تؤمن - كما صوّرها - أنّها تُنفذ أوامر غيبية لا تقبل النقاش، وأنّ حضورها بين الناس ليس مجرد مشاركة اجتماعية بريئة أو نشاطٍ رياضيّ، بل امتداداً لرسالةٍ سهاوية. غير أنّها حين تخلّصت من ذلك الوهم وتحرّرت من وصاية باب المولى وأذرعه الضاغطة في التنظيم السريّ، أدركت أنّ

الفصل الرابع: هندسة العزلة (من الجماعة إلى العالم الموازي)..... ٩١

اندماجها لم يكن بريئاً، بل جزءاً من سياسةٍ مدروسةٍ لإدارة الحضور الاجتماعي بغطاءٍ مقبولٍ؛ سياسةٍ تجعل من العاطفة وسيلةً تجنيد، ومن التودُّد طريقاً للنفوذ، ومن اللقاءات اليومية - حتى في القاعات الرياضية - جسوراً تمتدُّ بين السريَّة والعلن باسم الإمام الغائب.

هذه العزلة المقنَّعة هي التي يستهدف هذا الفصل تحليلها، من حيث بنيتها النفسية والاجتماعية والفكرية، وكيف تُنتج في النهاية أفراداً يعيشون بين الناس جسداً، لكنهم يعيشون خارج المجتمع وعياً وانتماءً. فهي عزلةٌ لا تُقاس بالمسافة، بل بالفصل بين الحقيقة والواجهة، بين النية والفعل، وبين الجماعة والمجتمع.

تبدأ فكرة العزلة داخل الجماعات المهدوية السريَّة لا بوصفها قراراً تنظيمياً، بل بوصفها (تجلياً إيمانياً) يُقدِّم نفسه كشرطٍ للطهارة. فالمرید الجديد لا يُدعى إلى الانفصال الصريح عن مجتمعه منذ البداية، وإنما يهياً تدريجياً للاعتقاد بأنَّ الخارج مشوَّش، وأنَّ نقاءه الروحي لا يكتمل إلا إذا تجرَّد من ضجيج العالم. ومن هذه البذرة الصغيرة تتولَّد شجرة الانفصال الكبرى التي تُحوِّل الجماعة إلى كيانٍ بديلٍ للعالم. العزلة ليست في ظاهرها رفضاً للناس، بل استبطانٌ لفكرةٍ دقيقة: أنَّ الحقيقة لا تُتاح إلا لمن تحرَّر من الآخرين. وهنا يبدأ الشرح بين الإيمان بوصفه التزاماً أخلاقياً علنياً، والانتماء بوصفه تجربةً مغلقةً لا يفهم معناها إلا في حدودها الداخلية.

في بدايات التكوين، تُعرَض العزلة على أنَّها تدريبٌ للصفاء،

مرحلة مؤقتة للتهيؤ الروحي، لكنها مع مرور الزمن تتحوّل إلى معيارٍ للإخلاص، ثمّ إلى سلوكٍ دائم يُقاس به صدق الولاء. ومع كلّ درجةٍ من درجات الانعزال، يتبدّل وعي الإنسان بعلاقاته الطبيعيّة: الأصدقاء يُصبحون عائقاً، الأسرة مصدرَ فتنة، المجتمع موطناً للغفلة. وهكذا تنتقل الجماعة من منطق الزهد الفردي إلى هندسةٍ للعزلة تُعاد فيها صياغة الروابط البشريّة.

العزلة في هذا المعنى ليست حَدَثاً، بل نظامٌ تفكيرٍ وإحساس. فالمرید يتعلّم أن يقيس نقاءه بمسافة ابتعاده عن الناس، ويتوهم أنّ قربه من الله لا يثبت إلاّ ببعده عن الخلق إلاّ بأمر من التنظيم، وبهذا المعنى، تتحوّل العزلة إلى عملةٍ رمزيّةٍ داخل الجماعة، يُكافأ بها الصامت، ويُمدح المنعزل، ويُعاب مَنْ يخالط (العوام). وهنا يحدث الانقلاب: إذ يُعاد تعريف (الناس) بوصفهم مادّة اختبار، لا شركاء في الطريق. ومن ثمّ، يُصبح العالم الخارجي مجرد فضاءٍ للتبليغ، لا للحوار، ولا يمكن أن يكون فيه حقٌّ يُتعلّق إلاّ ما يتطابق مع منطق الجماعة.

العزلة إذن أداة ضبطٍ اجتماعيٍّ ونفسيٍّ في آنٍ. فهي تضمن الولاء الكامل للنيابة من خلال تضيق البدائل الإدراكيّة أمام المرید. فحين يفقد المرء التماسّ اليومي مع الآخرين، يفقد أيضاً المقارنة التي كانت تُبقيه واعياً بالفارق بين الرأي والتأويل، وبين النصّ والقراءة. وبذلك يُعاد تشكيل وعيه من الداخل حتّى يغدو العالم كما ترويه الجماعة هو

الفصل الرابع: هندسة العزلة (من الجماعة إلى العالم الموازي)..... ٩٣

العالم كما هو فعلاً. بهذا المعنى، فإنَّ العزلة هي (الواقعية الموازية) التي تُمكن التنظيم من بناء خريطة ذهنية جديدة يتطابق فيها الإدراك مع المصلحة التنظيمية.

ولأنَّ العزلة بهذه الخطورة، فهي لا تُفرض بالقوة، بل تُنَعَّم بالقداسة. فيقال للمريد: إنَّ الانقطاع عن الناس رياضة للنفس، وإنَّ ترك الجدل معهم هو دليل على صفاء السريرة، وإنَّ الصمت طريق الأنبياء. هذه العبارات - التي تحمل في ظاهرها دعوة إلى الورع - تُستعمل في البنية المغلقة لتبرير الانسحاب من المجتمع لا تركية الذات داخله. في حين أنَّ الأصل في الشريعة أن يكون الإيمان حضوراً في الواقع، لا هروباً منه.

وقد ورد في الحديث عن الإمام عليٍّ عليه السلام قوله: «خَالَطُوا النَّاسَ مُخَالَطَةً إِنْ مِتُّمْ مَعَهَا بَكُوا عَلَيْكُمْ، وَإِنْ عَشْتُمْ حَنُوا إِلَيْكُمْ»<sup>(١)</sup>. هذه الكلمة ليست أخلاقية فقط، بل مبدأ اجتماعيٌّ مضادٌّ لهندسة العزلة؛ فهي تُعيد تعريف التدنُّن باعتباره جسراً إلى الناس لا سوراً حول الذات. ومع ذلك، تعتمد الجماعات السريّة إلى اقتطاع النصوص أو تأويلها بما يخدم العزلة: تُبرز الروايات التي تتحدّث عن فساد الزمان، وتُخفي النصوص التي تدعو إلى عمارة الأرض، حتّى يتشكّل وعي انتقائيٌّ يرى العالم مسرحاً للفتنة لا ميداناً للتكليف.

كلّما ضاقت الدائرة، ازداد الشعور بالصفاء، لأنَّ الصفاء هنا

(١) نهج البلاغة (ص ٤٧٠ / ح ١٠).

يُقاس بدرجة العزلة لا بدرجة الفهم. ومع تراكم التجربة، تبدأ العزلة في إنتاج أثرٍ نفسيٍّ مزدوجٍ: من جهةٍ، تمنح الإحساس بالتفوق الأخلاقي على المجتمع، ومن جهةٍ أُخرى، تُولّد خوفاً داخلياً من العودة إليه. وهذا الخوف يُترجم إلى ما يشبه (التحصين الدائم) ضدّ الخارج: فكلُّ ما يأتي من الناس مشكوك فيه، وكلُّ فكرةٍ لا تنبع من داخل الجماعة مريبة، وكلُّ مرجعٍ علميٍّ لا يقرّه النائب الخاصُّ موضعُ تهمة. عند هذه النقطة، لا تعود العزلة خياراً، بل هويّة.

الهندسة الاجتماعية التي تُتّجهها الجماعة من خلال هذه العزلة لا تقف عند حدود السلوك، بل تمتدُّ إلى الزمن نفسه. فالزمن داخل الجماعة يسير بإيقاعٍ خاصٍّ، متحرّراً من التقويم العامّ للمجتمع. للمريد مواسمه، وللجماعة أيامها ولياليها الخاصّة، وتُعاد صياغة الذاكرة الجمعيّة على أساس هذه التقويمات. ومع مرور الوقت، يتكوّن لدى الأعضاء ما يشبه (التقويم الموازي) الذي يُحدّد متى تبدأ البركات ومتى تنتهي، ومتى يُستحبُّ الصمت ومتى يُستحبُّ الظهور. الزمن الخارجي يفقد أهمّيّته، لأنّ خلاصهم مرتبطٌ بجدولٍ مختلفٍ لا يحكمه الفلك بل الإذن.

هذه السيطرة الزمنيّة ليست اعتباطاً؛ إنّها جزء من هندسةٍ كاملةٍ تهدف إلى بناء عالمٍ مغلقٍ فيزيائياً ورمزياً في آنٍ. فالمريد لا يعيش في عزلةٍ عن الناس فقط، بل في عزلةٍ عن الزمن والعقل. يُربّى على فكرة أنّ لكلِّ شيءٍ ظاهراً وباطناً، وأنّ الباطن لا يعرفه إلاّ (الخاصّة). وبذلك

تُنقل العزلة من المجال الاجتماعي إلى المجال المعرفي: لا يكفي أن تبتعد عن الناس، بل يجب أن تبتعد عن أنماط تفكيرهم. هنا بالضبط يبدأ ما يمكن تسميته بـ (الانفصال المعرفي)، أي التحول من الاشتراك في اللغة العامّة إلى لغةٍ خاصّةٍ لا تُفهم إلا داخل الجماعة.

وسنجد أنّ كلّ تنظيمٍ مغلقٍ يصنع لغته الخاصّة، لا من فراغ بل من حاجةٍ وظيفيّةٍ: فاللغة عندهم ليست وسيلة تواصل، بل جدارٌ من الرموز يجنب المعنى عن الغرباء. الجملة الواحدة التي تُقال في الخارج تحمل معنىً ظاهرياً، بينما تُستعمل في الداخل بمعنىً آخر تماماً. بهذا الأسلوب تتكوّن طبقتان من الكلام: الأولى تُخاطب المجتمع بعبارةٍ إصلاحيّةٍ عامّةٍ، والثانية تُخاطب الداخل بمصطلحاتٍ رمزيّةٍ تُعبّر عن الولاء والسّر والانتظار. إنّها ما يمكن تسميته بـ (الخطاب المزدوج) الذي يُعدّ من أرقى أدوات البقاء في التنظيمات السريّة.

الخطاب المزدوج ليس مجرد أسلوبٍ لغوي، بل منظومة وجوديّة تُدار بها العلاقات داخل الجماعة ومع الخارج. في الداخل تُستعمل لغة الإشارة والرمز والتكليف، وفي الخارج تُستعمل لغة الرحمة والإصلاح والانفتاح. السبب بسيط: الاتّصال بالغيب في وعيهم سرٌّ، والسّر لا يجوز أن يُذاع، لأنّ الأوعية الاجتماعيّة - كما يقولون - لا تتقبّل فكرة النيابة الخاصّة ولا تُدرك أسرار الولاية. وهكذا يتحوّل (السّر) إلى ذريعةٍ للغموض، و(الاحتياط) إلى بابٍ للتقيّة الدائمة، حتّى في المواقف التي لا تتطلب تقيّة.

إنَّهم يبنون داخل الجماعة عالماً من المعاني البديلة: (باب المولى) ليس معناه المتعارف، بل الشخص الذي له سلطة الاتصال. و(البيعة) ليست عهداً أخلاقياً، بل خضوعٌ للسِّرِّ. و(النور) ليس الهداية، بل إشارة إلى المعرفة الخاصَّة. في المقابل، حين يتحدَّثون إلى الخارج يتبدَّل القاموس فجأةً: تُصبح الدعوة (ثقافيَّة)، والحديث عن الغيب (تأمُّلاً روحياً)، والطاعة (انضباطاً)، والإمام (رمزاً للعدالة). كلُّ شيءٍ يُعاد ترجمته إلى لغةٍ متسامحةٍ وناعمةٍ تجذب المثقِّفين والمتعبين والمهمَّشين، بينما يحتفظ الداخل بمعناه الحقيقي. بهذه الآليَّة تبني الجماعة جسراً خادعاً بين عالمين، وتُنشئ لنفسها شرعيَّةً مزدوجةً: واحدة عقلانيَّة أمام الناس، وأخرى غيبيَّة أمام أتباعها.

في هذا التناقض اللغوي تكمن عبقرية البقاء. فكلِّما اشتدَّ الغموض، ازدادت القداسة، لأنَّ السِّرَّ يُولد رهبةً، والرهبة تُنتج تبجيلاً. ومع الوقت، يعتاد الأعضاء على العيش في عالمين متوازيين: عالم يقولون فيه ما يُقبل، وعالم يؤمنون فيه بما لا يُقال. هذا الانشطار بين القول والإيمان يُحدِّث انقساماً في الوعي، لكنَّه في الوقت نفسه يُنتج استقراراً ظاهرياً. إنَّه شكلٌ من أشكال (الازدواج الهادئ) الذي يُتيح للتنظيم أن يتمدَّد في المجتمع دون أن يُكتشف.

ومن أخطر آثار هذا الخطاب المزدوج أنَّه يُعيد تعريف الصدق ذاته. ف(الصدق) لم يعد مطابقة القول للواقع، بل مطابقة القول للمصلحة التنظيميَّة. فإذا اقتضت مصلحة الجماعة أن يُخفي الفرد

الفصل الرابع: هندسة العزلة (من الجماعة إلى العالم الموازي)..... ٩٧

عقيدته، صار الإخفاء واجباً دينياً، وإذا اقتضت أن يُظهرها، صار الإظهار بطولةً. وهكذا يتحوّل الصدق إلى وظيفة متغيّرة، لا قيمة مطلقة. هذا التحريف الأخلاقي البطيء يحدث في النهاية انقلاباً كاملاً في الضمير، بحيث لا يعود الفرد قادراً على التمييز بين الحيلة والتقوى. وفي وسط هذا الانقسام، يُعاد ترتيب القيم. فالمخلص ليس من يتقيّد بالقانون، بل من يُطيع النائب الخاص حتى لو خالف القانون. والمجاهد ليس من يقاوم الظلم الاجتماعي، بل من يقاوم شكوكه الداخلية. والعدل ليس تحقيق توازن في العلاقات، بل تنفيذ ما وُصف بأنه (تدبير إلهي). وهكذا تُختزل القيم في الطاعة، والطاعة في الولاء، والولاء في الخضوع للسرّ. عند هذه الدرجة من الانكماش، لا يعود الإيمان عقلاً واعياً، بل شعوراً جماعياً مغلقاً، وتُصبح الجماعة عالماً موازياً يحكمه منطق خاص لا يخضع لنقد المجتمع أو مقاييسه.

حين تكتمل بنية الخطاب المزدوج، تصبح العزلة مكتملة العناصر: عزل اجتماعي يحدّ من الروابط، وعزل لغوي يمنع التواصل، وعزل نفسي يعيد تعريف العالم وفق مفردات جديدة. هذه الطبقات الثلاث تصنع (العالم الموازي) الذي تتحوّل فيه الجماعة إلى كون مستقل لا يعترف إلا بذاته. العالم الخارجي يفقد معناه، لأنّه لم يعد مرجعاً للمعرفة أو الأخلاق. كل ما يأتي من الخارج إمّا مؤامرة أو جهل، وكل ما يأتي من الداخل نورٌ وحكمة. بهذا الشكل، يخلق التنظيم ما يمكن تسميته بـ (الاستقلال الوجداني)، أي تحرّر الوعي من الحاجة إلى

تصديق أحدٍ خارج الجماعة، حتّى ولو كان الدليل العقلي أو المرجعيّة الدينيّة المعترف بها.

تبدأ هذه المرحلة عادةً حين يُمنع الأعضاء من العودة إلى أيّ سلطةٍ معرفيّةٍ خارج التنظيم، بما في ذلك العلماء، أو حتّى النصوص التي لا تمرّ عبر تفسير النائب الخاصّ. كلُّ شيءٍ يجب أن يُعاد تلويحه بلون الجماعة. فإذا قرأوا القرآن، فبتفسيرهم الخاصّ، وإذا تذكّروا التاريخ، فبذاكرتهم المتتقاة، وإذا استخدموا المنطق، فوفقاً لقواعده المعدّلة التي تجعل الخلاف مع النائب الخاصّ نوعاً من الخلل في الفهم. عند هذه الدرجة، لا يبقى العقل أداة بحثٍ عن الحقيقة، بل أداة دفاع عن الجماعة. وهنا يبلغ مشروع العزلة قمّته، إذ تتحوّل الجماعة من كيانٍ اجتماعيٍّ إلى منظومةٍ تفكيرٍ مغلقة.

في هذا العالم الموازي، تتغيّر حتّى المفاهيم الكبرى: المعرفة تُقاس بالولاء، والتقوى تُقاس بالصمت، والذكاء يُقاس بسرعة الطاعة. يُعاد تصنيف الناس لا على أساس الفضيلة، بل على أساس القرب من السرّ. فهناك (أهل السرّ) الذين يُزعم أنّهم على اتّصالٍ بالغيب، وهناك (العامة) الذين ينبغي أن يكتفوا بالتلقّي. ويُمنح النائب الخاصّ مكانةً تتجاوز الإنسان دون أن يُعلن ذلك صراحةً. فهو ليس نبياً، ولا إماماً، لكنّه شيءٌ بينهما: بابٌ إلى الغيب، وواسطةُ الفهم، و(المرآة التي تنعكس فيها الإرادة الإلهيّة). بهذا التوصيف الرمزي يُزرع في النفوس نوعٌ من الخشوع الممزوج بالرهبة، فيغدو نقده ضرباً من قلةِ الأدب مع الغيب نفسه.

الفصل الرابع: هندسة العزلة (من الجماعة إلى العالم الموازي)..... ٩٩

حين تغدو هذه الحالة مستقرّة، يبدأ التفكُّك الهادئ للروابط الأسريّة. فالأسرة في نظر الجماعة تُمثّل (الميراث الاجتماعي القديم)، وهي تُعيق الولاء الكامل. يُقال للمريد: احبّ أهلَكَ ولكن لا تقرب كثيراً، كن معهم بجسدك لا بقلبك، لأنّ القلوب يجب أن تبقى لله وحده، والمقصود لله من خلال الجماعة. تدريجيّاً، يُستبدل مفهوم الأسرة بالـ (إخوة في الطريق). تتغيّر الأعياد، تتغيّر المناسبات، حتّى الطعام المشترك له طقوسه الخاصّة، وحين يدخل المريد بيته يشعر بالغرابة، لأنّ بيته الأوّل أصبح هناك، في العالم الموازي الذي يربطه بالنيابة.

التفكُّك هنا لا يحدث دفعةً واحدة؛ إنّه انزلاق ناعم. يبدأ بالاعتذار المتكرّر عن اللقاءات، ثمّ بالسكوت في النقاشات العائليّة، ثمّ بالاكْتفاء بالاستماع دون تفاعل. وفي النهاية، يتحوّل الصمت إلى جدارٍ يحجب.

بهذا الأسلوب يُعاد تشكيل الإنسان في صيغته الجديدة: كائنٌ مطيعٌ متحفّزٌ دائماً، ينظر إلى الخارج بعين الشفقة والريبة في آنٍ واحدٍ. من الجانب النفسي، تُؤدّي هذه العزلة إلى نشوء حالةٍ من التبعية المعرفيّة الكاملة. فالعقل، حين يُجرّم من تعدّد المصادر، يفقد مرونته، ويبدأ في إنتاج الإجابات لا الأسئلة. ولأنّ الجماعة تُغذّي هذه الحالة باستمرارٍ من خلال جلسات الذكر والتوجيه والمراجعة، يكتسب المريد شعوراً داخليّاً بأنّه (ممتلئ) بالمعرفة رغم أنّه لم يختبرها نقديّاً. هنا

تُصبح العزلة نوعاً من الامتلاء الوهمي الذي يُعوّض غياب الحوار، فيشعر الفرد بالطمأنينة لا لأنّه وصل إلى الحقيقة، بل لأنّه لم يعد مضطراً للبحث عنها.

إنَّ أخطر ما في هندسة العزلة أنّها تُفرغ الضمير من مسؤوليّة الفهم، لأنَّ الفهم صار جماعياً لا فردياً. فإذا اعترض العقل، وُصِفَ بالهوى، وإذا تساءل، وُصِفَ بالابتلاء، وإذا ناقش، اتُّهمَ بالتشويش. وهكذا يُعاد تعريف الحرّيّة بوصفها (الحرّيّة من الخطأ) لا حرّيّة البحث عن الصواب، ويُعاد تعريف الطاعة بوصفها (طريق النور) لا خيار السلوك. هذه التغييرات المفهوميّة الصغيرة تُنتج في النهاية نظاماً معرفياً بديلاً، يبدو منطقيّاً من الداخل لكنّه يناقض المنطق نفسه حين يُقاس بمعياريّ خارجيّ. ولأنَّ الفكر لا يحتمل الفراغ، فإنَّ الجماعة تملأ هذا الفراغ بمخزونٍ دائمٍ من الرموز والقصص التي تُكرّرها بلا توقّف. قصصٌ عن الإشارات والرؤى، عن المخلصين الذين أنقذهم النائب الخاص من الظلمة، وعن الأعداء الذين سقطوا بسبب الشكّ. كلُّ قصّة تعمل كجرعةٍ جديدةٍ من التأكيد، وكلُّ تكرارٍ يزيد الحاجز بين الداخل والخارج سمكاً. ومع الوقت، تُصبح الذاكرة الجمعيّة كائناً مستقلاً: إذا نُقضت قصّة واحدة، اهتزَّ النظام كله، ولذلك يُمنع الشكُّ من جذوره، لا لأنّه خطرٌ أخلاقيّ، بل لأنّه خطرٌ بنويّ.

النتيجة المنطقيّة لهذه الهندسة أن تُصبح الجماعة دولةً مصغّرة لها حدودها، وشريعتها، وطقوسها، ولغتها، وزمنها. الخارجون عنها

الفصل الرابع: هندسة العزلة (من الجماعة إلى العالم الموازي)..... ١٠١

يُعدُّون كأنَّهم تركوا الإيمان ذاته، لا مجرد جماعةٍ بشريَّةٍ. وهذا ما يُفسَّر  
شدة العنف اللفظي أو النفسي الذي يُوجَّه لمن ينسحب منها، إذ يُنظر  
إليه على أنه خان (السَّر) وأفشى (العهود). بهذا المعنى، تتحوَّل العزلة  
إلى نظام عقوباتٍ اجتماعيٍّ، لا مجرد اختيارٍ روحيٍّ.

من وجهة النظر العقلية، يمكن القول: إنَّ هندسة العزلة تُمثِّل  
انقلاباً على حكمة الغيبة. فالمقصود من الغيبة امتحان العقل، لا إلغاء  
المجتمع. العقل في فلسفة الإمامة هو الحجَّة الباطنة، والمرجعية هي  
الحجَّة الظاهرة، والامتحان قائمٌ على الجمع بينهما. فإذا عُطلَّ أحدهما،  
سقط الامتحان. والعزلة، بما تفرضه من تعطيلٍ للحوار والعقل العام،  
تُلغي الامتحان بدل أن تنجح فيه.

وقد ورد في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾  
(الحجرات: ١٣)، إشارةً إلى أن التنوع والاختلاط شرطان للمعرفة لا  
عائقان عنها. فإذا جاء مَنْ يدَّعي أن الكمال لا يتحقَّق إلا بالعزلة، فقد  
ناقض مبدأ الخلق نفسه. لأنَّ التعارف في هذا السياق ليس اجتماعاً  
جسدياً فحسب، بل تبادلٌ للعقول وتجربةٌ للتمايز الذي يُنضج الوعي.

من هنا يمكن القول: إنَّ العزلة التي تُشيد داخل الجماعات  
السريَّة ليست عبادةً ولا زهداً، بل إلغاءً للشرط العقلي للإنسان. إنَّها  
تجعل الفرد يرى العالم من ثقبٍ صغير، وتُقنعه بأن ما يراه هو الكون  
كلُّه. ومع الوقت، يُصبح هذا الثقب هويته الوحيدة، فإذا فُتح له  
الأفق، أُصيب بالعمى.

على المستوى الاجتماعي، تُؤدِّي العزلة إلى إضعاف مناعة المجتمع نفسه. فحين تُخفي الجماعة خطابها الحقيقي وتُظهر خطاباً عاماً مموهاً، يختلُّ نظام الثقة بين الناس، وتضيع الحدود بين الفكر المشروع والفكر المتطرّف. كلُّ تنظيمٍ مغلقٍ يحتفظ بسرّاً لا يفهم إلا داخله يُصبح بالضرورة مصدر قلقٍ دائمٍ للمجتمع، حتّى لو لم يمارس العنف؛ لأنّ الغموض نفسه عنفٌ رمزيٌّ ضدّ الشفافيّة.

لهذا، فإنّ الدفاع عن الفكرة المهدويّة لا يكون بمحاصرة النقاش حولها، بل بفتحها على العقل العامّ. فالمعتقد الذي لا يحتمل الضوء لا يحتمل الصدق. إنّ الغيبة ليست تفويضاً بالسريّة، بل تذكيراً بأنّ الحجّة في زمن الستر هي البرهان لا الوساطة. وكلُّ مَنْ يدّعي أنّ الوصول إلى الغيب يمرُّ من بابٍ خاصٍّ إنّما يصنع حول نفسه غيمةً تحجب نور الحقّ عن الآخرين.

العزلة، إذن، ليست موقفاً دينياً دائماً، بل في بعض الأحيان مرضٌ معرفيٌّ واجتماعيٌّ يتغذّى من الخوف. الخوف من الخطأ، من النقد، من انكشاف الادّعاء. ولذلك فإنّ العلاج ليس بالوعظ، بل بإعادة بناء الثقة بين العقل والدين، وبين الإيمان والمجتمع. فالإيمان الذي يُبنى على الانغلاق يذبل، والدين الذي ينفصل عن العالم يُصبح رمزاً بلا روح. وفي التصرُّو، يمكن القول: إنّ (هندسة العزلة) ليست مجرد مرحلةٍ في تطوُّر التنظيمات السريّة، بل هي صورتها النهائيّة. لأنّها اللحظة التي يكتمل فيها الانفصال عن العالم والعقل معاً. ومن هنا

الفصل الرابع: هندسة العزلة (من الجماعة إلى العالم الموازي)..... ١٠٣

تبدأ الحاجة إلى المقاومة الفكرية: ليس بالاتهام، بل بالفتح، ليس بالعقاب، بل بالحوار، ليس بالعزلة المضادة، بل بالمجتمع الحي الذي يستطيع أن يحتوي، ويفكك، ويعيد الإنسان إلى ذاته. هذا هو جوهر المعركة بين الانتظار المهدوي الأصيل والانتظار المصادر: الأول يصنع إنساناً حاضراً في العالم، والثاني يصنع عالماً بلا إنسان.

### العزلة حراسة للسّر:

حين نُعيد النظر في معنى العزلة داخل الجماعات المهدوية السرية المنحرفة، ندرك أنّها لا تُقاس بعدد الخطوات التي يبتعد بها العضو عن الناس، بل بعدد الجدران التي تُقام داخل وعيه بين (ما يعلم) و(ما يُسمَح له أن يقول). فالعزلة ليست سكوناً، بل حركة مزدوجة: حركة اندماج خارجيٍّ مدروسٍ، وحركة انكماشٍ داخليٍّ شديد الحراسة. الكثير من أعضاء هذه التنظيمات لا يعيشون وراء الأبواب المغلقة، بل يُكلّفون بالخروج إلى المجتمع والانخراط في أنشطته: المشاركة في المجالس، حضور الندوات، بناء العلاقات العامة، زيارة العوائل، الانضمام إلى الجمعيات، بل وحتى العمل في مواقع إعلامية وثقافية ظاهرة. يُطلب منهم أن يتسموا، وأن يُظهروا الودّ والانفتاح، وأن يُنشئوا الجسور مع مختلف التيارات. كلُّ ذلك ليس نقيضاً للعزلة، بل جزءٌ من هندستها الأمنية. فالعزلة في هذا المستوى لا تعني الانسحاب من الناس، بل التحرك بينهم بوعيٍّ مزدوج: وعيٍّ خارجيٍّ منفتحٍ للتواصل، ووعيٍّ داخليٍّ مغلقٍ لا يبوح بسرّ.

في الواقع، يمكن القول: إنَّ التنظيمات المهدويَّة المنحرفة طَوَّرت ما يشبه (الاندماج الوقائي)، أي الاندماج الذي يهدف إلى التمويه والحماية. العضو لا يعيش في عزلةٍ مادِّيَّة، بل يعيش في نظامٍ دقيقٍ من المراقبة الذاتِيَّة، بحيث يتحوَّل كلُّ تصرُّفٍ اجتماعيٍّ إلى جزءٍ من مهمَّةٍ أمنيَّة. فالابتسامة واجبٌ تنظيميٌّ، والعلاقة الإنسانيَّة أداةٌ رصدٍ، واللقاء العابر فرصةٌ للتقييم. بهذا المعنى، تُصبح العزلة بنيةً خفيَّةً خلف الاندماج نفسه؛ حضورٌ ظاهريٌّ يخفي انسحاباً داخلياً من التواصل الحقيقي.

تُقَدِّم هذه الاستراتيجيَّة للأعضاء على أنَّها (تكليفٌ روحيٌّ) لا (تكليفٌ أمنيٌّ). يُقال لهم: إنَّ الانفتاح على الناس ضرورةٌ دعوويَّةٌ، لكن مع الحذر الشديد في الحديث عن (الأسرار). ومع الوقت، يتحوَّل الحذر إلى غريزة، والسكوت إلى فضيلة، والتكتم إلى طهارة. هكذا تُنتج العزلة نظاماً أمنياً داخلياً يعمل من دون شرطة ولا مراقب؛ لأنَّ كلَّ عضوٍ يراقب نفسه خشيةً أن يبوح بشيءٍ من (السِّرِّ)، فيتحوَّل الحذر إلى عبادة، ويُصبح الخوف من الإفشاء نوعاً من الولاء.

وقد أوصت معظم القيادات الغيبيَّة في هذه التنظيمات - ك (باب المولى) أو (اليمني) أو (الوسيط) - بأنَّ السِّرَّ لا يُقال لأحد، حتَّى للأقربين. تُكرَّر عليهم عبارات من قبيل: (مَنْ أَفشى السِّرَّ أطفأ النور)، أو (السِّرُّ عهد بينك وبين الغيب)، لتُزرع في الوعي فكرة أنَّ السكوت شرط للنجاة، وأنَّ بوح السِّرِّ خيانةٌ لا للتنظيم فقط بل للإمام نفسه.

الفصل الرابع: هندسة العزلة (من الجماعة إلى العالم الموازي)..... ١٠٥

بهذه اللغة، تتحوّل العزلة إلى نظام حماية طوعيّ للسّر، لا يحتاج إلى أجهزة أو تهديد صريح، لأنّ الرادع أصبح داخلياً في ضمير العضو. العزلة، إذن، لا تُفرض على الجسد، بل على الضمير. فهي التي تُبقي الوعي في حالة (تحفّز دائم للسكوت)، وتمنع التلقائية في الكلام أو الانفعال أو العطاء. حتّى في لحظات العاطفة، يتردّد العضو قبل أن يتكلّم، يزن الكلمات بميزان الخوف من أن يتجاوز حدود السّر. ومع الوقت، يُصاب بالانفصال الشعوري؛ يعيش في المجتمع جسداً نشطاً، لكنّه يحمل داخله منطقة مغلقة لا يدخلها أحد. هذه هي العزلة في صورتها الأكمل: أن يكون الإنسان محاطاً بالناس، لكنّه يعيش وحده في وعيه.

هذا النمط من العزلة يُولّد ثقافة الظلال داخل التنظيم. فلا أحد يتحدّث بصراحة، ولا أحد يثق تماماً بالآخر، لأنّ السّر أصبح أثمن من الحقيقة. الولاء يُقاس بمدى الصمت، والمكانة تُقاس بقدرة العضو على إخفاء ما يعرفه. حتّى القادة يُحيطون أنفسهم بالرموز والإشارات، لأنّ الغموض يمنحهم سلطة. وحين يسود الغموض، تزدهر السلطة. فالعزلة لم تعد مجرد حماية للفكرة، بل حماية للتراتبية التي تقوم عليها الجماعة. بهذه الطريقة، يتحوّل البعد الأمني إلى بُعد عقائديّ. فالتنظيم لا يقول لأعضائه: (اكتتم السّر لأجل أمننا)، بل يقول: (اكتمه لأجل نقاء الطريق). لكن خلف هذا الخطاب، تعمل شبكة كاملة من المراقبة السلوكية الدقيقة: مَنْ قال ماذا؟ مَنْ عبّر بعفوية؟ مَنْ سأل أكثر

مما يجب؟ والخطر لا يأتي من الخارج فقط، بل من الداخل؛ لأنَّ مَنْ يتكلَّم أكثر ممَّا ينبغي يُعدُّ مصدراً للريبة. وهكذا تتحوَّل الجماعة إلى فضاءٍ مغلقٍ من العيون المتبادلة والقلوب المرتابة، حتَّى تبدو متماسكة من الخارج، بينما هي من الداخل شبكةٌ من الرقابة الذاتية المتبادلة.

النتيجة النهائية لهذه البنية أنَّ العزلة لم تُعد فقط سجناً للفرد، بل درعاً للتنظيم. فما دام الأعضاء يعيشون في خوفٍ مقدَّسٍ من البوح، فإنَّ التنظيم يظلُّ آمناً، لأنَّ كلَّ شخصٍ يحرس السرَّ في داخله كما يحرس إيمانه. بل إنَّ بعضهم يشعر بالزهو حين يُخفي، وكأنَّ الكتمان علامة النخبة المختارة. وبذلك تتحوَّل العزلة من عبءٍ نفسيٍّ إلى هويَّةٍ أمنيَّة، ومن حالةٍ وجدانيَّةٍ إلى عقيدةٍ تنظيميَّة، تُبقي الجماعة في مأمنٍ من التفكُّك، لكنَّها في الوقت نفسه تُبقي الإنسان بعيداً عن ذاته وعن صدقه.

إنَّ أخطر ما في هذا الشكل من العزلة أنَّه يُربِّي ضميراً مراقباً لا ضميراً واعياً. الضمير المراقب يخاف من الخطأ لأنَّه يُعرضه للعقاب، أمَّا الضمير الواعي فيخاف من الخطأ لأنَّه يناقض الحقيقة. وبين الاثنين فرقٌ جوهريٌّ: الأوَّل يحرس السرَّ، والثاني يحرس الصدق. حين تنتصر ثقافة السرِّ على ثقافة الصدق، يتحوَّل الدِّين إلى جهازٍ أمني، والإيمان إلى حالةٍ من الكتمان المرَّضي.

من هنا يمكن القول: إنَّ العزلة ليست نقيض الاندماج، بل قناعه الأعمق. فمن بين أكثر الناس اندماجاً في المجتمع، قد تجد مَنْ يعيش

الفصل الرابع: هندسة العزلة (من الجماعة إلى العالم الموازي)..... ١٠٧

أقصى درجات العزلة الوجدانية؛ يتحدث باسم الخير، يشارك في النشاط، يمدُّ الجسور، لكنَّه في داخله يحمل جداراً لا يُرى، جداراً يحجز الحقيقة عن أن تُقال. إنَّه يعيش في قلب الناس، لكنَّه في وعيه يعيش في كهفٍ من السرِّ، لا يسمع فيه إلاَّ صدى صوت القيادة التي أوصلت: (لا تُفشوا السرِّ، فبه تحفظون الطريق).

وهكذا تغدو العزلة في نهاية المطاف أداة البقاء الأخطر لهذه الجماعات: اندماجٌ مموَّهٌ في الخارج، وانغلاقٌ محصَّنٌ في الداخل. ابتساماتٌ تزرع الثقة، وصمتٌ يحرس السرِّ. تواصلٌ يخدم المراقبة، وانفتاحٌ يُخفي الانفصال. تلك هي العزلة الأمنية التي تُبقي التنظيم حيًّا، لكنَّها تترك الإنسان فيه ميتاً من الداخل.

\* \* \*



الفصل الخامس:

## نُخبة الغيب

استقطاب الوجاهة الباحثة عن المعنى



لم يكن الفقر وحده هو مدخل الجماعات السريّة إلى النفوس، بل ربّما كان الغنى في أحيانٍ كثيرة هو الثغرة الأوسع. فالنفس المترفة التي شبت من اللذات الماديّة وبقيت خاوية من المعنى تُصبح أكثر عرضةً للانجذاب إلى أيّ خطابٍ يمنحها طهارةً رمزيّةً، أو إحساساً بالتفرّد في دربٍ لا يسلكه العوام. من هنا بدأت التحوّلات في استراتيجيّات التنظيمات المهدويّة السريّة: بعد أن كانت تستقطب البسطاء الباحثين عن الأمان، صارت تستقطب النخبة الباحثة عن المعنى.

تُدرك هذه الجماعات أنّ بعض النفوس لا تُقاد بالحاجة، بل بالرمز. فالثريّ الذي لا يحتاج إلى مالٍ جديدٍ يحتاج إلى تبريرٍ جديدٍ لوجوده، والمثقف الذي أنهكه التفكير يحتاج إلى تجربةٍ تُخرجه من البرهان إلى الكشف، وصاحب النفوذ الذي ضجر من السلطة يريد أن يشعر بأنّه يملك سلطةً من نوعٍ آخر: سلطة الغيب. ومن هنا تنبثق فكرة (نخبة الغيب)؛ ذلك الصّفُّ المختار من وجوه المجتمع الذين يُقنعهم التنظيم بأنّهم من (الخاصّة) الذين خُصّوا بفهمٍ أعمق، أو بأنّهم مؤتمنون على سرٍّ لا يُعطى إلا للقلائل.

يتعامل التنظيم مع هذه الفئة بمزيجٍ من الاحترام والتملُّق الروحي. لا يُكلّمهم بلغة العامّة التي تفيض بالأوامر والنواهي، بل

بلغت فلسفيّة ملساء تتحدّث عن (الوعي)، و(التحوّل)، و(الصفاء)، و(الطاقة النورانيّة)، و(الإشراق الداخلي). كلُّ هذه المفردات تعمل كجسرٍ لغويٍّ بين الثقافة المعاصرة والتصوّف القديم، لتصنع وهماً بأنّ الجماعة ليست حركة دينيّة مغلقة، بل مدرسة فكريّة للصفوة الذين تجاوزوا الطقوس إلى الجوهر. في هذا الإطار، تتحوّل الفكرة المهدويّة إلى فلسفة غامضة، وتغدو النيابة الخاصّة نوعاً من (الاتّصال المعرفي) لا الدّيني، وتُقدّم الطاعة بوصفها (تسليماً لتجربة الوعي) لا إذعانا للسلطة.

إنّها إعادة إنتاج كاملةٍ للمفاهيم في قالبٍ نخبويٍّ، حيث تُزيّن الفكرة بألفاظٍ عصريّةٍ تُخفي جوهرها التسلّطي. فبدل الحديث عن (الإمام الغائب) تُستخدم مفردات مثل: (الطاقة الكونيّة)، وبدل (البيعة) يُقال: (الانفتاح على السرّ)، وبدل (الولاء) يُقال: (الاتّصال بالمركز النوراني). وبهذه اللغة الناعمة تدخل الجماعة إلى الصالونات الفكريّة، والمجالس الثقافيّة، وحلقات الحوار الأكاديمي، فتبدو كأنّها تيارٌ تأمليٌّ يزاوج بين الدّين والفلسفة والروحانيّة، بينما هي في الحقيقة تنظيمٌ غيبيٌّ مغلقٌ يختبر ضحاياه قبل أن يفتح لهم باب السرّ.

الخطاب النخبوي لا يحتاج إلى معجزاتٍ ولا كراماتٍ حسيّة؛ إنّما يحتاج إلى جُمَلٍ تحتمل التأوويل وتمنح الشعور بالتفرد. فحين يُقال لأحدهم: إنّ (القلّة من الناس تُدرك أنّ الغيب لا يُرى بالعين بل بالوعي)، يشعر أنّه من القلّة. وحين يُقال له: (ليس كلُّ مؤمنٍ مُخلّصٍ،

الفصل الخامس: نُخبة الغيب (استقطاب الوجاهة الباحثة عن المعنى)..... ١١٣

بل هناك المُخَلَّصون الذين اختارهم الغيب منذ الأزل، يبدأ يُصدِّق أنَّ له مكانةً لا يشاركه فيها الآخرون. فيتسلَّل الشعور بالاصطفاء إلى داخله بهدوءٍ كامل، دون أن يشعر أنَّه نُزِعَ من المجتمع، لأنَّه ما زال يجلس فيه ويتحدَّث بلغته. لكنَّ معنى اللغة تغيَّر، وصار العالم عنده ينقسم إلى (العاديِّين) و(المستيقظين).

يُنقِض القادة في هذه التنظيمات فنَّ التماهي مع النُخب المثقَّفة. فالقائد ليس دائماً شيخاً تقليدياً بعمامةٍ أو لحيةٍ طويلةٍ، بل قد يكون مفكراً متزناً، أو كاتباً روحانياً، أو مستشاراً نفسياً، أو باحثاً في الوعي الجمعي. هذه الأفضنة تمنحه شرعيةً الحضور في الفضاء الأكاديمي والثقافي، وتتيح له الوصول إلى الطبقات التي كانت تنفر من الخطاب الديني المباشر. وفي كثيرٍ من الأحيان، يُقدِّم القائد بوصفه (العارف) أو (الحجِّي) أو (الأخ الأكبر) أو (باب المولى)، وهي تسميات مختلفة لجوهرٍ واحدٍ: الشخص الذي يزعم أنَّ له قناة اتصالٍ بالغيب لا يفهمها غيره.

وهكذا تنشأ علاقةٌ فريدة بين القائد والنخبة المنضمة إليه. فهي ليست علاقةً تبعيةً صريحةً، لأنَّ الأتباع أنفسهم يرفضون الاعتراف بذلك؛ إنَّها علاقة (تنوير) ظاهرها الحوار وباطنها السيطرة. القائد لا يقول: (أنا أمرك)، بل يقول: (دع وعيك يختبر الحقيقة). لكنَّه هو مَنْ يُحدِّد للحقيقة مداخلها. بهذا الأسلوب، يُحدِّد الحسُّ النقدي لدى النخبة التي طالما تفاخرت بقدرتها على التفكير الحرِّ. فهي لا تشعر أنَّها تطيع أحداً، بل تشعر أنَّها تسير نحو اكتشاف ذاتها.

هذا هو جوهر السيطرة النخبويَّة: الإقناع بأنَّ الطاعة تجربةٌ عقليةٌ. بينما في الواقع هي طاعةٌ صامتةٌ لسلطةٍ رمزيةٍ تحكم من وراء حجاب. وفي لحظةٍ معينةٍ، يُكشَفُ لبعضهم عن (السِّرِّ)، فيقال لهم: إنَّ هناك تواصلًا خاصًا مع الإمام، أو إشاراتٍ تأتي من العالم الغيبي، وأنَّ القائد ليس مدَّعيًا بل وسيطٌ روحيٌّ مختبرٌ. وعندها يتحوَّلُ الانتماء من بحثٍ فكريٍّ إلى التزامٍ روحيٍّ كاملٍ، إذ يشعر العضو أنَّه بلغ مرتبةً لا ينبغي أن يشاركها مع مَنْ هم أدنى.

هذه العملية من (التدرُّج في الكشف) تُسمَّى عند بعض الباحثين: (تأهيل السِّرِّ). إنَّها عمليةٌ بناءٌ بطيئةٌ للثقة حتَّى يتقبَّلَ المتلقِّي ما لم يكن ليقبله لو قيل له في البداية. فكما أنَّ الطفل لا يُعطى النار قبل أن يتعلَّم كيف يُطفئها، يُقال للنخبة: (لا يُكشَفُ السِّرُّ إلَّا لمن ثبت إخلاصه)، وهكذا يتحوَّلُ الإخلاص إلى أداةٍ للسيطرة المعنويَّة. كلِّما زاد العضو ثقةً في القائد، زاد استعدادُه لتصديق ما لا يُعقل.

ولأنَّ هذه النُخب قد جاءت من خلفياتٍ فلسفيةٍ أو دينيةٍ متنوِّعةٍ، فإنَّ التنظيم يُتقن فنَّ (الترجمة التأويلية) لكلِّ ثقافة. فمَنْ كان ذا ميلٍ علميٍّ يُخاطبونه بلغة الطاقات والمجالات الكونية، ومَنْ كان ذا نزعةٍ دينيةٍ يُخاطبونه بلغة الولاية والسِّرِّ، ومَنْ كان ذا اهتمامٍ نفسيٍّ يُخاطبونه بلغة الوعي والتحوُّل الذاتي. والنتيجة أنَّ كلَّ واحدٍ يرى في الخطاب صورةً من نفسه، فيظنُّ أنَّه اختار بحرِّيَّته، بينما هو اختير لأنَّ خطابه الداخلي كان معروفًا مسبقًا.

تستند هذه الجماعات إلى دراسةٍ دقيقةٍ للشخصيات التي تستقطبها. فهي لا تفتح أبوابها للجميع، بل ترصد الشخصيات ذات القابلية النفسية العالية للانخراط في تجربةٍ غامضةٍ: أولئك الذين يُظهرون حنيناً دائماً لما وراء العالم، أو يعانون من أزمةٍ في المعنى رغم النجاح الظاهري، أو يملكون حساً عاطفياً رقيقاً يجعلهم أكثر تقبلاً لفكرة (التجربة الروحية). وهكذا تُصبح الصفوة المثقفة هي البيئة المثلى للتجنيد، لأنّها تُحبُّ أن تكون متميّزة، وما من شيء يُقدّم التميّز مثل الإيحاء بالاختيار الغيبي.

في هذه المرحلة لا تظهر مفردة (الطاعة) ولا (النيابة)؛ بل تُقدّم فكرة (التناغم مع السرّ). يُقال للعضو: (لسنا نطلب منك شيئاً، فقط كن في حالة استعدادٍ دائمٍ لتلقي الإشارات). هذه الصيغة الرمزية تُنتج طاعةً من نوعٍ آخر: طاعةً الانفعال لا طاعةً الفعل، أي طاعةً ناعمةً لا تحتاج إلى أمرٍ صريحٍ. وهكذا تنتقل السيطرة من مستوى التعليقات إلى مستوى المشاعر. وهذا هو أخطر أشكال الغزو العقلي، لأنّه يجعل الاستجابة تبدو كقرارٍ ذاتيٍّ حرّ.

هذه البيئة الراقية ظاهراً تُعيد إنتاج جميع آليات التنظيمات السريّة في صورةٍ جديدةٍ. فالولاء يتخفّى تحت شعار الصداقة الفكرية، والعزلة تُبرّر بأنّها (تحصين للطاقة)، والسرُّ يُشرح بأنه (تجربة وعي لا تُفهم بالعقل المنطقي). كلُّ شيءٍ يُعاد تأويله بحيث يبقى جميلاً ومنطقياً لمن يسمعه أوّل مرّة. حتّى حين يُطلب من العضو الانسحاب من

بعض العلاقات الاجتماعية أو الكف عن مناقشة أفكاره مع الخارج، يُقدّم ذلك لا كأمرٍ تنظيمي، بل كـ (حماية للطاقة من التلوّث). هذه اللغة الجديدة تُخدّر الحسّ النقدي وتحوّل السيطرة إلى مشاركةٍ في (رحلة الوعي).

حين تكتمل هذه الرحلة في وعي العضو النخبوي، يكون قد انتقل من موقع (التأمل) إلى موقع (المؤمن). لم يعد يبحث عن الحقيقة، بل صار حارساً لها. ولأنّه يشعر أنّه أحد القلّة الذين (عرفوا السرّ)، تتكوّن في داخله بنية دفاعية معقّدة: يخاف أن يفقد امتيازَه، ويخاف أكثر أن يكون قد انخدع. وهذان الخوفان يدفعانه إلى المزيد من الانغلاق داخل الجماعة. فكلمًا راوده الشكّ، استحضر مقامه المميّز داخل الدائرة الضيقة، وكلمًا شعر بالاضطراب، عاد إلى باب المولى ليستعيد توازنه. وهكذا يتحوّل العقل الحرّ إلى عقلٍ تابعٍ طوعاً، لا بسبب القهر، بل باسم الصفاء.

في هذه المرحلة، يبدأ التنظيم بإعادة هيكلة حياة العضو النخبوي من الداخل. يُطلَب منه أن يوازن بين دوره الاجتماعي وموقعه (الروحي)، وأن يلتزم بالهدوء والسريّة. لا يُطلَب منه التبشير العلني، بل أن يكون (سفير النور) في مجاله المهني والثقافي. فالرجل الأكاديمي يُكلّف بنشر مفاهيم (الوعي الكوني)، ورجل الأعمال يُكلّف بتمويل مشاريع (النهضة الروحيّة)، والكاتب يُكلّف بتمرير المصطلحات الرمزيّة في مقالاته. وهكذا تمتدّ خيوط التنظيم داخل بنية المجتمع عبر وجوهٍ محترمةٍ تبدو مستقلةً لكنّها متّصلةٌ بخيطٍ خفيٍّ واحدٍ.

هذه المرحلة تُمثّل نضج (التمويه النخبوي). فالقائد لا يحتاج بعد الآن إلى أن يخاطب العامة، بل يكفي أن يتحدث إلى النخبة التي صارت لسانه في المجتمع. كل واحدٍ منهم يُصبح بؤرة إشعاعٍ بلغةٍ تختلف عن لغة الآخر، لكنّ المعنى واحد: الإعداد لوعي جديدٍ بقدم المخلّص، أو التهيئة لمرحلةٍ غيبيةٍ تتطلّب (صفوةً من القلوب المستعدة). وهكذا يتحوّل الخطاب الديني من مشروعٍ أخلاقيٍّ إلى مشروعٍ طبقيٍّ للوعي، حيث يُقسّم الناس إلى درجاتٍ في الفهم الروحي، ويُعاد إنتاج الهرميّة القديمة في صورةٍ جديدةٍ.

إن أخطر ما في هذه الجماعات أنّها تستغلّ حاجة الإنسان للمعنى لا لتلبيها، بل لتربطها بالوصاية والطاعة العمياء. فهي تُقنع الفرد بأنّ المعنى لا يُنال إلا من خلال (الواسطة)، وأنّ الغيب لا يتجلّى إلا لمن تهيأ عبر سلسلةٍ من (المعلّمين). هذا البناء الهرمي يحاكي النماذج القديمة للباطنية والفرق السريّة التي جعلت من المعرفة سلطةً مغلقةً. الفرق الوحيد هو أنّه اليوم يتزيّن بلغة الحداثة والوعي.

في هذه اللحظة يبدأ التحوّل الأخطر: من البحث عن الله إلى البحث عن الذات المؤهّلة. فالنخبوي الذي كان يبحث عن علاقةٍ أعمق بالله يجد نفسه يبحث عن نفسه في مرآة قائد التنظيم. كلّما تعمّق في التجربة، صار يظنُّ أنّه يقترب من الله، بينما هو في الحقيقة يقترب من صورةٍ بشريّةٍ تتقمّص صوت الله. وحين يصل إلى هذا المستوى من الاندماج، يصعب عليه الانفصال؛ لأنّه يشعر أنّه إذا ابتعد فقد الله

ذاته. هنا يبلغ الاستغلال قَمَّتَه، إذ يتحوَّل المقدَّس إلى أداةٍ لاحتجاز الوعي.

في ضوء التحليل العقلي، يمكن وصف هذا المسار بأنَّه انقلاب في منهج المعرفة. فالمعرفة في أصلها تقوم على الشكِّ المنهجي والبرهان المشترك، بينما هنا تقوم على (التزكية الخاصَّة) التي لا تُرَاجَع. ما يُسمَّى في الفكر الفلسفي بـ (التجربة الحدسيَّة) يُختَزَل إلى إذعانٍ وجدائيٍّ يُفرض كقانونٍ على الجميع تحت غطاء الشعور الداخلي العميق الذي يحدث دون برهان منطقي أو حسيٍّ واضح. وبذلك تفقد النخبة ميزتها التي كانت تقوم على التفكير النقدي، لتُصبح نموذجاً جديداً من التابعين الواعين. إنَّهم لا يُخدعون بالجهل، بل يُخدعون بالذكاء ذاته، لأنَّ ذكاءهم يُعاد توجيهه ليُبرِّر النظام بدل أن يُفكِّكه.

هذا النمط من الخضوع الواعي أشدَّ خطراً من الجهل، لأنَّه يُنتج طبقةً من المدافعين المقتنعين. هؤلاء يكتبون، ويُحاضرون، ويُموِّلون، ويُسوِّقون الفكرة بلسان العقل بينما جوهرها باطنيٌّ مغلقٌ. وهكذا يكتسب التنظيم شرعيَّةً ثقافيَّةً لا يستطيع أن يحلم بها لو بقي محصوراً في دوائر الفقر والتهميش.

إنَّ الخطاب المهدوي الأصلي - كما تشير النصوص - هو خطاب رجاءٍ لا احتكار. فالإمام الغائب رمزٌ لعقل الأُمَّة المستتر، لا لإلغاء عقولها. وقد ورد في التوقيع الشريف المنسوب إليه ﷺ: «وَأَمَّا الْحَوَادِثُ الْوَأَقِعَةُ فَارْجِعُوا فِيهَا إِلَى رِوَاةِ حَدِيثِنَا، فَإِنَّهُمْ حُجَّتِي عَلَيْكُمْ

الفصل الخامس: نُخْبَةُ الْغَيْبِ (استقطاب الوجاهة الباحثة عن المعنى)..... ١١٩

وَأَنَا حُجَّةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ»<sup>(١)</sup>. هذا التوقيع لا يمنح أحداً سلطة الاتصال بالغيب، بل يُوجِّه الناس إلى مرجعيةٍ علنيّةٍ خاضعةٍ للنقد والمساءلة العلميّة والاختيار الحرّ من الإنسان. وفق المعايير العلميّة والتقوائيّة التي حدّدها الشرع. أمّا مَنْ يدّعي أنّ الاتصال بالغيب يمرُّ عبر وسطاء سرّيين لا يُعرفون إلا بالولاء، فقد نقض معنى الغيبة وجعلها حضوراً مقنّعاً في يد مَنْ لا يملك الشرعيّة.

من منظورٍ نفسيّ، إنّ ميل النخبة إلى هذا النوع من الخطاب ليس ضعفاً، بل بحثاً عن توازنٍ مفقودٍ. فالحياة الفكرية الحديثة أفرغت الكثير من المعنى، وحوّلت الإنسان إلى آلةٍ تحليليّةٍ تُدرك كلّ شيءٍ إلا نفسها. فيأتي الخطاب الغيبي ليمنحه دفعةً روحيّةً تعيد له الشعور بالدهشة الأولى. لكنّ الدهشة حين تُحتكر، تتحوّل إلى تخدير. والمعنى حين يُباع في قوالب النخبة، يتحوّل إلى سلعةٍ روحيّةٍ جديدةٍ.

ولذلك فإنّ مقاومة هذا النمط من التنظيمات لا تكون بالسخرية من تجارب النخبة الروحيّة، بل بإعادة بناء المسار الصحيح للمعنى. فالمعنى لا يُستعار من وسيط غير معصوم، ولا يُوهب من قائد لتنظيم سرّي غامض، بل يُستولّد من فعل العقل والضمير في ضوء النصّ والعقل العامّ. وكلُّ تجربةٍ تُغلق هذا الأفق باسم الغيب تُعيد إنتاج الوثنيّة في ثوبٍ جديدٍ.

بهذا المنظور، تُصبح النخبة مسؤولة عن مراجعة أدواتها في

---

(١) كمال الدين (ص ٤٨٤ / باب ٤٥ / ح ٤).

البحث عن الحقيقة. فليس كلُّ ما يُلبَس ثوب الفلسفة حكمة، ولا كلُّ ما يُزيّن بالروحانيّة نوراً. إنّ الطريق إلى الله لا يمرُّ عبر الغموض، بل عبر وضوح مؤلم أحياناً لكنّه صادق.

إنّ ما يُميّز التنظيمات السريّة التي تتلاعب بالنخبة هو أنّها تسرق أجمل ما في الإنسان - حاجته إلى السموّ - وتُعيد توجيهه نحو سلطةٍ بشريّة مموّهة. إنّها لا تقتل العقل، بل تضعه في خدمة السرّ، ولا تحارب الحرّيّة، بل تُقنّع صاحبها بأنّه اختار قيوده بنفسه. وهنا تبلغ السرقة ذروتها: سرقة المعنى من القلب، والعقل من صاحبه.

وحين نصل إلى هذا الإدراك، نعرف أنّ المعركة الحقيقيّة ليست بين الدّين والعقل، بل بين الدّين الحقيقي والدّين المُتقمّص من السُّراق باسم الاتّصال بالغيّب. بين الإيمان الذي يُحرّر، والإيمان الذي يُدار كعقيدة امتيازٍ طبقيٍّ جديدٍ. إنّ حماية الفكرة المهدويّة وصونها في أفقها الإنساني الواسع تبدأ حين تُعاد إلى مبدأها الأوّل: أنّ الغيب امتحانٌ للعقل لا تفويضٌ بالغيّاث، وأنّ الانتظار ليس امتيازاً لنخبةٍ سريّةٍ غامضةٍ، بل مسؤوليّة أمةٍ في العمل والمعرفة.

وهكذا ينتهي هذا الفصل حيث بدأ: فالتنظيمات التي تسرق المعنى من النخبة باسم الاتّصال بالغيّب لا تفعل أكثر من أنّ تُعيد إنتاج الجاهليّة في لغة العصر. والواجب على الوعي الدّيني والعقلي أن يردّ المعنى إلى موضعه: في الفعل، في التفكير، في الصدق، وفي التحرّر من كلّ وصايةٍ تتكلّم باسم الله وانبيائه وأوليائه لتسجن الإنسان في قفص النور الزائف.

الفصل السادس:

## يافطات التمويه وسياسة التكتّم

كيف تبني التنظيمات السريّة جذورها داخل المجتمع المدني؟



في كل تجربة تُخفي عقيدتها وراء خطابٍ مدنيٍّ متأنق، هناك حكايةٌ عن التمويه والذكاء النفسي أكثر مما هي عن العقيدة نفسها. فالتنظيمات السريّة التي تتبنّى الخطاب المهدويّ المنحرف لا تهاجم المجتمع من الخارج، بل تتسلّل إلى داخله بلغةٍ هي لغته، وتتنفّس هواءه، وتستعير همومه وقضاياها لتغرس في نسيجه بذورَ مشروعٍ غريبٍ عنه. ليست المواجهة إذن بين (المجتمع) و(الخصم)، بل بين صورتين للمعنى داخل المجتمع ذاته: صورةٌ صادقةٌ تُعبّر عن الاحتياج الإنساني الطبيعي إلى العدالة والإصلاح، وصورةٌ زائفةٌ تُوظّف هذه الحاجة لتصنع من الإصلاح غطاءً للوصاية.

في ظاهر الأمر، تبدو هذه التنظيمات كأنّها وجوهٌ جديدةٌ لمجتمعٍ مدنيٍّ ناشطٍ يسعى للخير. غير أنّها لا تتحرّك بعفويّة، بل وفق هندسةٍ دقيقةٍ للتموضع، حيث يُعاد بناء الخطاب بما يخفي المضمون ويحتفظ بالسطح المضيء. فكلُّ كلمةٍ تُختار بعناية، وكلُّ يافطةٍ تحمل اسماً مطمئناً، وكلُّ نشاطٍ مدنيٍّ يُقاس بمدى قدرته على إنتاج الثقة العامّة. لكن ما يختبئ تحت هذه الثقة هو نظامٌ من الرموز الداخليّة التي لا تُفهم إلا في الدائرة المغلقة.

التمويه هنا ليس مجرد تلاعبٍ لغويٍّ أو تجميلٍ للواجهة، بل هو

عقلٌ موازٍ يعمل داخل اللغة ذاتها. الكلمات تتحوّل إلى أوعية مزدوجة: في الخارج تحمل معنى نافعاً، وفي الداخل تحمل معنى خاصاً لا يُدرکه إلا المنتمي. بهذا الأسلوب يتحوّل العالم اللغوي إلى عالم من الرموز المشفّرة، وتصبح اللغة نفسها أداة استقطابٍ خفيٍّ لا تحتاج إلى إقناع مباشرٍ. الإنسان لا يُستدرج هنا بالمنطق، بل بالحنين إلى المعنى، وبالأنجذاب إلى مفرداتٍ تبدو أخلاقيةً وإنسانيةً وعميقةً.

من يقرب من هذه اليافطات يجدها تتحدّث عن الحرّيّة، عن تمكين المرأة، عن البيئّة، عن الإصلاح، عن العدالة. كلّها قضايا حقيقية تستحقّ النضال. غير أنّها تتحوّل تدريجياً إلى مفاتيحٍ لتغيير المعنى من الداخل. فالحرّيّة تُعاد صياغتها لتعني التحرّر من المرجعيّات التي تحفظ التوازن الاجتماعي، والعدالة يُعاد تعريفها على أساس الولاء، والتمكين يُصبح وسيلةً لتجنيد الفئات الحسّاسة نفسياً، في حين يُعاد تقديم الإصلاح كمشروعٍ روحانيٍّ غامضٍ مرتبطٍ بالعالم الغيبيّ.

في قلب هذه العمليّة يقف مفهوم (التكتم) الذي يمنح التنظيم بقاءه. فالتكتم ليس إجراءً أمنياً فحسب، بل أسلوبٌ حياةٌ يُعيد تشكيل الذات. يُربّي الأعضاء على أنّ السرّ قيمةٌ روحيةٌ، وأنّ إخفاءه عبادة. ومع الزمن، يتحوّل الكتمان إلى هويّةٍ داخليةٍ، تجعل الفرد يشعر بأنّ ما يُخفيه هو جوهره الحقيقيّ، وما يُظهره للناس مجرد قشرةٍ لحمايته. هذه الثنائية النفسية تُنتج شعوراً دائماً بالتفوّق، لأنّ العضو يعتقد أنّه يعيش في مستوى من الفهم لا يُدرکه الآخرون.

الفصل السادس: يافطات التمويه وسياسة التكتُّم (كيف تبني التنظيمات السريَّة جذورها...) ..... ١٢٥

الإنسان في هذه الحالة لا يُخفي ما ينجل منه، بل ما يراه مقدَّساً. ولذلك فإنَّ التكتُّم لا يُشعره بالثقل، بل بالفخر. كلما زاد إيمانه بالسِّرِّ، زادت طاعته لمن يملك مفاتيحه. فالعلاقة بين القائد والمريد لا تُبنى على الحِجَّة، بل على ما يُسمَّى (الاختيار الغيبي) الذي يجعل المريد يُسلم روحه لمن يعتقد أنَّه موصلٌ بين الأرض والسماء. في هذه اللحظة لا تعود الطاعة خياراً، بل تتحوَّل إلى بنية داخل الوعي، حيث يتماهى الإيمان مع الانقياد.

ولأنَّ التنظيمات السريَّة تُدرك أنَّ الوضوح يُفقدُها الغموض الذي يُغري النفوس، فإنَّها تُتقن فنَّ التوازن بين العلن والباطن. فهي تُبقي جذورها في الظلِّ، لكنَّها تمتدُّ في النور بأغصانٍ مدنيَّةٍ أنيقة. تُقيم الأنشطة في العلن، وتُدار الأهداف في الخفاء. يُتاح للناس أن يروا المشهد العامَّ، لكنَّ ما يدور في العُرف الصغيرة يبقى سراً لا يُمسُّ. بهذا الأسلوب تُبنى الثقة الاجتماعيَّة، لا بوصفها قيمةً أخلاقيَّةً، بل غطاءً استراتيجياً.

إنَّ سرَّ النجاح في هذا النمط من الحركات يكمن في فهمها العميق لطبيعة الوعي الجمعي. فهي لا تفرض نفسها بالقوَّة، بل تنفذ من خلال الحاجة إلى الانتماء. وحين يُقدِّم الانتماء في ثوبٍ من المعنى، يُصبح أشبه بالعزاء الداخلي للنفوس التائهة. لا أحد يُجبر أحداً على الإيمان، بل يُمنح له شعورٌ بالخصوصيَّة. في البداية يُقال له: إنَّه مختلف، ثمَّ يُقال له: إنَّه مُختار، ثمَّ يُقال له: إنَّ اختياره امتحان. وهكذا يتحوَّل التمايز إلى عبوديَّةٍ روحيةٍ مغلَّفةٍ بالكرامة.

في البنية النفسية للتمويه، هناك تلاعبٌ عميقٌ بين الأنا والضمير. فالفرد يشعر أنه يشارك في مشروعٍ نبيلٍ لا يمكن أن يُساء فهمه. يُقال له: (ليس المهمُّ أن يفهمك الناس، المهمُّ أن تكون صادقاً مع السرِّ). هذه الجملة وحدها كافية لإغلاق كلِّ منافذ النقد الذاتي. من هنا تبدأ العزلة الحقيقية: عزلة الإنسان عن صوته الداخلي، عن قدرته على الشكِّ النبيل الذي يصنع الوعي. في لحظةٍ ما يُصبح الشكُّ خيانةً، ويُصبح التساؤلُ دليلَ ضعفٍ في الإيمان. وتلك هي الذروة التي يتوقَّف عندها التفكير.

التمويه ليس في خطابه فحسب، بل في أثره النفسي على المجتمع. فكلُّ حركةٍ غامضةٍ تزرع بذرة الشكِّ في البيئة التي تنشط فيها. حين تتشابه اليافطات وتختلط الشعارات، يفقد الناس القدرة على التمييز بين الإيمان الحقيقي والادِّعاء المتقن. ويُصبح الفضاء العامُّ مسرحاً للرموز المتناقضة التي تتشابه في ظاهرها وتتناقض في جوهرها. في هذا المشهد المربك، تتراجع الثقة ويضعف الحسُّ الجماعيُّ، لأنَّ الجميع يبدأون في الشكِّ في الجميع.

الخطر الأكبر أنَّ التمويه يُفرغ الكلمات من معناها. فحين يُستخدم مفهوم الحرية لتمرير الطاعة، ومفهوم الإصلاح لتبرير الخضوع، تُصاب اللغة نفسها بالإنهاك. وحين تتعب اللغة من الصدق، يتعب العقل من الفهم. عندها يُصبح الوعي هشاً، لا يقوى على مقاومة الخطابات المموَّهة، لأنَّه لم يعد يعرف الفرق بين الصدق

الفصل السادس: يافطات التمويه وسياسة التكتُّم (كيف تبني التنظيمات السريّة جذورها...)..... ١٢٧  
والتقيّة. هذا الانهيار في البنية اللغويّة للأخلاق هو ما يجعل المجتمعات  
المرهقة أرضاً خصبةً للخطابات الغامضة.  
سياسة التكتُّم لا تعمل في الفراغ، بل تحتاج دائماً إلى بيئة تُقدّس  
الغموض وتُقصي النقد. لذلك تنجح هذه التنظيمات أكثر في  
المجتمعات التي تخاف من السؤال وتخلط بين الاحترام والصمت.  
فهي تراهن على ضعف الشفافيّة، وتزدهر في كلّ فضاءٍ يتراجع فيه  
الحوار الحرّ. كلّما غاب النقاش، تمدّد السرّ. وكلّما سكت العقل العامّ،  
ارتفع صوت الغيب المزور.

في المقابل، لا يمكن مواجهة هذه الشبكات بإجراءاتٍ أمنيّةٍ  
فحسب، لأنّها لا تُدار بالسلاح بل بالرمز. الرموز هي سلاحها  
الحقيقيّ، لأنّها تدخل في اللاوعي الجمعي وتعيد تشكيله دون مقاومة.  
ولذلك فإنّ المواجهة الفعّالة تبدأ من اللغة نفسها: من استعادة الكلمات  
إلى معناها، من إعادة تعريف الحرّيّة، والكرامة، والتجديد، والوعي،  
بما يُعيدها إلى جذورها الإنسانيّة الصادقة. إنّ اللغة الصافية هي أوّل  
حصنٍ ضدّ التمويه، لأنّها لا تُتيح للزيف أن يتخفّى.

ومن أهمّ ما تكشفه ظاهرة التمويه هو أنّ الإنسان لا يُجَدَع إلاّ  
حين يريد أن يؤمن بشيءٍ يريجه. فالوهم لا ينجح بالقوّة، بل بالراحة  
التي يمنحها. كثيرون لا ينضمّون إلى هذه الجماعات بدافع العقيدة، بل  
بدافع السكينة. يريدون يقيناً بسيطاً في عالم معقّد، وصوتاً مطمئنّاً في  
زمنٍ مزدحمٍ بالضجيج. لكنّ هذه الراحة تُصبح فخاً حين تُبنى على

إنكار الذات. فكلُّ طمأنينةٍ لا تقوم على وعيٍ تنتهي إلى عبوديةٍ ناعمةٍ لا يشعر بها صاحبها إلا حين يفقدها.

التمويه لا يصنعه القادة وحدهم، بل يكمله الصمت العام الذي يُبرِّر كلَّ شيءٍ باسم حسن الظنِّ. فالسكوت عن الغموض هو الشكل الأكثر خطورةً من المشاركة فيه. والمجتمع الذي يتعلَّم أن يتجنَّب الأسئلة بدعوى الأدب أو الورع، يفتح الباب لكلِّ مَنْ يُتقن لعبة الرموز أن يقوده. لأنَّ الحقيقة، مهما كانت مؤلمة، تظلُّ أكثر رحمةً من الوهم المغلف بالفضيلة.

لا يمكننا أن نفهم سياسة التكتُّم دون أن نقرأها كحالةٍ من إدارة الخوف. فالتنظيم ينجح في بناء ولائه من خلال تحويل الخوف إلى عبادة. يخاف الناس من أن يُتَّهَموا بعدم الإيمان، فيتظاهرون بالتصديق. يخافون من الخروج عن الصفِّ، فيتماهون مع الخطاب الغامض حتَّى لا يُقَصِّوا. وهكذا يُصبح الخوف نظاماً من الطاعة الاختيارية، لا يحتاج إلى قهرٍ خارجيٍّ لأنَّه يعيش في داخل الضمير.

في النهاية، ليست اليافطات هي المشكلة، بل ما تفعله اليافطات بالعقل والوجدان. إنَّها تُربِّي في الناس عادة النظر إلى الظاهر دون الباطن، وتُدربهم على قبول التناقض باسم التعقيد. ومع الزمن، يفقد الإنسان ثقته بأنَّ الحقيقة ممكنة. كلُّ شيءٍ يُصبح قابلاً للتأويل، حتَّى الخير والشرُّ يفقدان تمايزهما. هذه النسبية الأخلاقية هي الأرض التي ينبت فيها المشروع الباطني: مشروعٌ يجعل الإنسان يظنُّ أنَّه أعمق من

الفصل السادس: يافطات التمويه وسياسة التكتُّم (كيف تبني التنظيمات السريّة جذورها...) ..... ١٢٩  
الآخرين، بينما هو في الحقيقة قد ضلَّ طريق البساطة التي تصنع  
الصدق.

إنَّ استعادة المعنى لا تكون بالصراخ ضدَّ السريّة، بل بإحياء  
الوعي الحرِّ الذي يجعل السرَّ غير ضروري. حين يجد الإنسان في  
الوضوح جمالاً، وفي الحوار طمأنينةً، وفي الشفافيّة حُرمةً للضمير، لن  
يحتاج إلى أيِّ وساطةٍ تُدير له علاقته بالغيب أو بالعقل. كلُّ ما يزدهر في  
الظلام يذبل في النور، وكلُّ ما يُبنى على التمويه يسقط أمام السؤال  
الصادق. إنَّها قاعدة الوجود الإنساني منذ أن بدأ الإنسان يبحث عن  
المعنى: أنَّ النور لا يحتاج إلى بابٍ، بل إلى عينٍ ترى.

\* \* \*



الفصل السابع:

## هندسة الولاء

تفكيك البنية النفسية والعقلية لصناعة الطاعة في  
التنظيمات السرية التي تستغل قضية الإمام المهدي عليه السلام



## الولاء بين الإيمان والانحراف:

لا يتناول هذا الفصل ظاهرة الولاء بوصفها قيمة دينية أصيلة، فالإسلام في جوهره يدعو إلى طاعة الله ورسوله وأولي الأمر، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ (النساء: ٥٩). لكن الإشكال يظهر حين تتحوّل الطاعة من عبادة لله إلى أداة في يد تنظيم سرّي يدّعي النيابة عن الإمام المهدي عليه السلام أو الاتصال بالغيب. هذه التنظيمات لا ترفض الدين، بل تتخفّى خلفه، وتستثمر رموزه ومفاهيمه النبيلة - كالانتظار، والتمهيد، والصفوة، والتضحية - لبناء منظومة ولاءٍ مغلقة تُجرّد الإنسان من استقلاله العقلي والروحي.

إنّ هذا الفصل لا يتناول المنابر الدينية أو الجمعيات الشرعية التي تعمل في النور وتحت القانون، بل يتناول التيارات السرية التي تُسيء استخدام الخطاب المهدي لتبرير الطاعة العمياء، وتحويل الإيمان بالغيب إلى وسيلة للسيطرة على الضمير.

## من الواجبة إلى الوعي.. ولادة الولاء من رحم التمويه:

ليس من السهل تتبّع اللحظة التي يتقل فيها الفرد من موقع المتعاطف مع حركة دعوية أو إنسانية إلى موقع المطيع في منظومة سرّية

تُخفي أهدافها الحقيقيَّة. فذلك التحوُّل لا يقع بأمرٍ مباشرٍ ولا بميثاقٍ مكتوبٍ، بل ينشأ تدريجيًّا في منطقةٍ رماديَّةٍ بين الوعي والإيحاء. يبدأ المسار حين يجد الإنسان في تلك الجماعة تفسيراً شاملاً للعالم، أو ملاذاً نفسياً من التشتُّت والضياع. فيزرع الولاء لا كواجبٍ تنظيميٍّ، بل كإيمانٍ شخصيٍّ داخليٍّ يُشعر صاحبه أنَّه يمارس من خلاله الطاعة لله. غير أنَّ هذا الإيمان سرعان ما يتحوَّل إلى بوصلةٍ مزيفةٍ تُعيد تعريف الخير والواجب وفق منطق التنظيم لا وفق الوحي والعقل. في هذه المرحلة، يكون الانقياد تديُّناً من دون وعي. فالفرد يرى نفسه في حالة عبادةٍ بينما هو واقع في هندسةٍ نفسيَّةٍ دقيقةٍ تسلبه القدرة على التساؤل. وهكذا تتسلَّل الفكرة السريَّة تحت ستار الفضيلة، ويُحوَّل المفهوم الدِّيني إلى أداةٍ للبرمجة.

المنابر الدِّينيَّة الأصبيلة لطالما نَبَّهت إلى هذا الخطر، فهي تُعلِّم أنَّ الطاعة لله لا تُفهم إلا في ضوء العقل والشرع، وأنَّ «لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ»<sup>(١)</sup>. لكنَّ التنظيمات المنحرفة تستبدل هذه القاعدة بتقديسٍ مبطنٍ للقائد أو (الوسيط الغيبي)، فيختلط الإخلاص بالانبهار، والإيمان بالاستسلام.

### الطاعة كإيهاام بالسموِّ الروحيِّ:

حين ينجح التنظيم في التغلغل داخل المجتمع عبر يافطاتٍ مدنيَّةٍ

(١) نهج البلاغة (ص ٥٠٠ / ح ١٦٥).

الفصل السابع: هندسة الولاء (تفكيك البنية النفسية والعقلية لصناعة الطاعة...) ..... ١٣٥

أو دينية ظاهرها الخدمة والرحمة، يبدأ في نقل المعركة من العفن إلى الوعي، ومن الشارع إلى الضمير. لا تعود الغاية كسب الأنصار، بل بناء نُسَخ من الذات التنظيمية داخل الأفراد.

تبدأ لغة جديدة بالظهور: (نحن الصفوة)، (نحن أهل البصيرة)، (نحن الممهدون)، وهي مفردات تُقنع الفرد بأنه في طريق خاص إلى الله، لا يدركه العوام. في هذا السياق، تتبدل معاني الطاعة: لا تعود خضوعاً بشرياً، بل (ترقياً روحانياً). يشعر المرید أن الانقياد للقائد هو عبادة خفية، وأن مخالفة التوجيه تجر حرماناً من الفيض الإلهي.

هذه الصورة المزيّفة من الطاعة تُقدّم في قالب وجداني لا عقلاني. فبدل أن يُطلب من الفرد أن يفكر، يُطلب منه أن (يسلم). وبدل أن يُربى على المسؤولية، يُربى على الشعور بالاختيار الإلهي. عندها تتحوّل الطاعة من وسيلة لتنظيم الجماعة إلى جوهر الهوية الشخصية. الخطورة هنا ليست في الطاعة ذاتها، بل في تغييب معيار الطاعة: أن تكون لله، لا للقيادة. كلُّ ولاء لا يستمدُّ مشروعيته من الله ومن ميزان الشرع والعقل، يتحوّل ببطء إلى صنمٍ معنويٍّ يُعبد دون وعي.

### البنية النفسية للانصهار.. إعادة تشكيل الذات:

لفهم هندسة الولاء في هذه التنظيمات، لا بدّ من تحليل البنية النفسية التي تُعاد صياغتها داخل الفرد. فالتنظيم لا يسلب وعي العضو دفعةً واحدة، بل يستثمر حاجاته الوجودية الطبيعية: الأمان، الاعتراف، المعنى.

- الحاجة إلى الأمان: الجماعة تمنحه دفء الانتماء الذي افتقده في المجتمع، فيجد في الطاعة حمايةً من الخوف والضياع.

- الحاجة إلى الاعتراف: القيادة تُشعره أنه مرئيٌّ ومقدَّرٌ، فتحوّل الطاعة إلى وسيلةٍ لنيل الحُبِّ والقبول.

- الحاجة إلى المعنى: يجد أن حياته هدفاً سامياً مرتبطاً بالمشروع المهدي، فيستبدل السؤال الحرَّ باليقين الجاهز.

تُحوّل هذه الحاجات تدريجياً إلى أدواتٍ للضبط. ومع الوقت، يُعاد بناء الضمير بحيث يُصبح الولاء هو المعيار الأعلى للأخلاق. هذه الحالة تُعرّف في علم النفس الاجتماعي بـ (الانصهار الهويّاتي): إذ تذوب الحدود بين الذات والجماعة، فيتحدّث الفرد بضمير الجمع (نحن)، ويكفُّ عن رؤية ذاته ككيانٍ مستقلٍّ.

أمّا على المستوى العقلي، فيبدأ التحوّل من التفكير النقدي إلى التفكير الواحد القطعي. تراجع القدرة على احتمال التناقض، ويُعاد تعريف الشكِّ كخطيئة. بذلك تُحتزل المعرفة في ثنائِيَّةٍ حادّةٍ: معنا أو ضدنا، عارف أو غافل، مطيع أو منحرف. وهذه الثنائِيَّة هي العمود الفقري لكلِّ هندسة ولاءٍ ناجحةٍ.

### من النفس إلى المجتمع.. الضمير الجمعي البديل:

حين يُعاد تشكيل الضمير الفردي، تنتج شبكةٌ من الاعتماديّة المتبادلة تجعل الفرد يرى في الجماعة مصدراً لوجوده لا مجرد إطار عمل. الانسحاب منها يُشعره بالموت المعنوي، فيتحوّل الخروج إلى خيانةٍ

الفصل السابع: هندسة الولاء (تفكيك البنية النفسية والعقلية لصناعة الطاعة...) ..... ١٣٧

روحية. ينشأ ما يمكن تسميته بـ (الضمير الجمعي البديل)، حيث يُقاس الصدق بمدى الولاء، ويُقاس الإخلاص بمدى الطاعة. هذا الضمير الجمعي لا يقوم على الإكراه بل على العاطفة؛ إنه استبداد ناعم يُقدّم في ثوب الحبّ.

ومن هنا يتفوّق التنظيم السري على أيّ سلطة قمعية: فهو لا يحتاج إلى تهديد ولا عقوبة. فالفرد نفسه يُصبح رقيباً على ذاته وعلى غيره، تحت ذريعة (الغيرة على المشروع). وهكذا يتحقّق الانقياد الطوعي الكامل دون أن يشعر الإنسان أنّه فقد حرّيته.

### الشخصية المهيأة للولاء:

ليس كلُّ إنسانٍ قابلاً لهذا النوع من التشكيل، لكنّ كلَّ إنسانٍ يحمل في داخله بذوراً نفسيةً يمكن استثمارها. يمكن تصنيف القابلية في ثلاثة مستويات متداخلة:

١ - القابلية الوجودية: الباحث عن معنى، عن رابطٍ بين الأرض والسماء. التنظيم يُقدّم رواية كونيةً مغلقةً تُريح العقل من فوضىّ الأسئلة.

٢ - القابلية الاجتماعية: مَنْ يشعر بالوحدة أو التهميش يجد في الجماعة دفء العائلة الجديدة، فيتحوّل ولاؤه إلى شكلٍ من أشكال الامتنان.

٣ - القابلية القيميّة: مَنْ يعيش صراعاً بين المثال والواقع يجد في التنظيم وعداً بتحقيق المثال. وهنا تتحوّل الأخلاق من بوصلةٍ إلى أداةٍ تحكّم.

التنظيم لا يخلق هذه الدوافع، بل يُعيد توجيهها، فيستثمر النبل الإنساني ذاته لبناء بنية من الانقياد.

مثالٌ على ذلك: في إحدى المَدُن الخَلِيجِيَّةِ درست فِرَقٌ بحثيةً حالة امرأةٍ بدأت ناشطةً في جمعيةٍ نسويةٍ مدنيَّةٍ، ثمَّ انتهت قياديَّةً في تنظيم مهدهويٍّ سرِّيٍّ. كان دافعها الأوَّل أخلاقياً، لكن الجماعة أعادت تعريف الظلم والعدالة داخل عقلها. لم تُعد ترى العنف بوصفه ظاهرةً اجتماعيةً، بل دلالةً على فسادٍ كونيٍّ يستوجب الخلاص عبر (الصفوة الواعية). هكذا تحوَّل الوعي الحقوقي إلى ولاءٍ وجوديٍّ باسم الدِّين.

### القائد والرمز والطقس.. هندسة القداسة:

لا يكتمل مشروع الولاء دون القائد الرمز والطقس الجماعي. القائد يُصاغ حضوره بعناية لغويَّةٍ ونفسيَّةٍ: يُقدَّم بوصفه صاحب البصيرة، (العارف بالغيب)، أو (المرتبط بالإمام). يُحيط نفسه بهالةٍ من الغموض المقصود لتغذية الخيال الجمعي. فالغموض يُحوَّل الإنسان إلى رمز، والرمز إلى قداسة.

أمَّا اللغة فهي الجسر الذي تُنقل به الكاريزما إلى العقول. تُنشأ مفردات خاصة تُعيد تشكيل الإدراك: (الممهِّدون)، (المؤهَّلون)، (أهل النور). هذه المصطلحات تُقيم هرمًا داخليًّا غير معلنٍ، يُفرِّق بين المؤمنين بالظاهر والمؤمنين بالباطن، وبين العامَّة و(أهل السرِّ). ومع الوقت، يتعلَّم العضو أن يقيس الآخرين وفق هذا القاموس.

ثم تأتي الطقوس لتُغلق الحلقة: اجتماعات خاصة، لحظات تطهير

الفصل السابع: هندسة الولاء (تفكيك البنية النفسية والعقلية لصناعة الطاعة...) ..... ١٣٩

نفسية، أو جلسات (استذكار) تُتلى فيها نصوصٌ مهدويةٌ بتأويلٍ باطنيٍّ. الهدف ليس العبادة، بل توليد الشعور بالتماهي. في تلك اللحظات الجماعية، يذوب الأفراد في (الكل)، فيتراجع التفكير لصالح الإحساس الجمعي. علماء النفس يسمّون هذه الحالة الاندماج الوجداني الموجّه، حيث تتعطل الرقابة النقدية مؤقتاً لصالح الشعور بالانصهار.

بهذا الشكل، تتحوّل الروحانية إلى وسيلةٍ هندسيةٍ للضبط. فالإخلاص الروحي يُعاد تعريفه ليصبح إخلاصاً للقيادة، والطاعة تُقدّم كتعبيرٍ عن صفاءٍ باطنيٍّ لا عن التزامٍ عقلائيٍّ بشريعة الله.

### تفكك الولاء.. حين يُولد السؤال:

الولاء المصنوع لا يدوم. كلُّ هندسةٍ تقوم على الإيهام محكومةٌ بالانهيار حين يُطلُّ السؤال. تبدأ لحظة التفكك من الداخل، حين يكتشف المرید التناقض بين الشعارات والواقع، أو بين القول والفعل. الشرخ الصغير في جدار الإيمان التنظيمي قد يتحوّل إلى ثورة صامتة داخل الضمير.

يصف أحد المنشقين تجربته بقوله: (كنت أظنُّ أنني أُطيعُ حبّاً، ثم اكتشفت أنني أُحبُّ خوفاً). حين يتحوّل الحبُّ إلى خوفٍ، يُدرك العقل أنه كان في قيدٍ مغلّفٍ بالعاطفة. غير أنَّ الخروج من التنظيم لا يعني الخلاص الفوري. فالفرد يواجه فراغاً وجودياً: يفقد الجماعة والمعنى واليقين. يعيش ما يُعرَف بـ (متلازمة الانفصال العقائدي)، حيث

يمتزج الحنين بالاشمئزاز. يشعر بالذنب لأنه رُبِّي على أن الخروج خطأً أخلاقياً لا مراجعة فكرية؛ لهذا، فإن علاج الانشقاق لا يكون بالتنديد، بل بالاحتواء. فالمجتمع الذي يُدين الخارج يدفعه من حيث لا يدري إلى العودة. لا بدّ من بناء فضاء آمنٍ للأسئلة، حيث يتعلّم الخارج أن التفكير لا يعني الخيانة، وأن الطاعة لله لا تتنافى مع النقد.

### العقل مساحة مقاومة:

إنَّ أوَّلَ ميدانٍ تُستعاد فيه الحرِّيَّة هو ميدان الفكر، فالعقل الذي أطَّره التنظيم تحت شعار (التسليم) يجب أن يُستعاد كأداة تساؤلٍ لا كأداة تبرير. الإسلام لا يعادي العقل، بل يجعله شرطاً للإيمان. جاء في الحديث الشريف: «إِنَّ الْعَاقِلَ مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَإِنْ كَانَ ذَمِيمَ الْمَنْظَرِ حَقِيرَ الْخَطَرِ، وَإِنَّ الْجَاهِلَ مَنْ عَصَى اللَّهَ وَإِنْ كَانَ جَمِيلَ الْمَنْظَرِ عَظِيمَ الْخَطَرِ»<sup>(١)</sup>. لكن التنظيمات السريّة تُحرِّف المعنى، فتجعل الطاعة للبشر معيار العقل، وتصف الشكّ بأنه مرض. وهكذا تُحوّل التفكير إلى تهمة، والمراجعة إلى ارتداد.

ومع ذلك، فالعقل هو آخر مساحةٍ يمكن إخضاعها بالكامل. قد يُستدرج الضمير، وقد تُخدع العاطفة، لكنّ السؤال لا يموت. حين يستيقظ العقل، ينهار البناء. ولهذا، فالمواجهة الحقيقيّة مع هذه التنظيمات لا تكون بالقمع أو بالسخرية، بل ببناء ثقافةٍ عقلانيّةٍ جماعيّةٍ تُحصّن الوعي قبل أن يُصاب بالعدوى.

(١) كنز الفوائد (ج ١ / ص ٥٦).

### أثر هندسة الولاء في المجتمع:

الولاء التنظيمي لا يقتصر على الأفراد، بل يترك بصماته على البنية الاجتماعية حتى بعد سقوط التنظيم. يمكن رصد ثلاثة مظاهر متكررة:

١ - تضيق دوائر الثقة: تنتشر الريبة في المجتمع، ويخاف الناس من المشاركة خشية الاتهام. وهكذا يُصاب الفضاء المدني بالجمود.

٢ - اختزال الهوية في الانتماء: يتكرر منطق (نحن) و(هم) على نطاقٍ أوسع: من التنظيم إلى الطائفة أو المنطقة. فيتحوّل الولاء إلى نموذج ثقافي جديد للانقسام.

٣ - تحويل الأخلاق إلى سلاح: يُستخدم الحكم الأخلاقي كوسيلة تمييز لا فهم. مَنْ يختلف يُدان، لا يُناقش. فتحوّل القيم إلى جدرانٍ بدلاً من جسور.

هذه المظاهر تُعدُّ من آثار (التلوث الولائي) الذي يتركه التنظيم بعد تفكُّكه. ويمكن قياسه عبر ثلاثة مؤشرات: انخفاض الشفافية، ضعف النقد، وتراجع المبادرات القائمة على الثقة.

### استعادة الإرادة والوعي الاجتماعي:

الوقاية من هندسة الولاء لا تكون بالمنع أو الرقابة، بل ببناء مناعة فكرية وروحية. فالحرية ليست رفض القيادة، بل أن تكون الطاعة نابعة من وعي ومسؤولية، لا من إلغاء الإرادة. على الأسرة أن تُربي أبنائها على أن الطاعة لله تقتضي الفهم قبل الامتثال. وعلى

المدرسة أن تُعلّم السؤال لا الخوف منه. وعلى المنبر الديني - وهو الحارس الأول لوعي الناس - أن يُعيد الاعتبار للعقل بوصفه أداة معرفة لا خصماً للوحي. فرسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُطَاعُ جَبْرًا، وَلَا يُعَصَى مَغْلُوبًا»<sup>(١)</sup>، أي إنَّ الطاعة الحقيقية هي التي تصدر عن بصيرة.

كما أن المجتمع المدني مسؤولٌ عن تعزيز الشفافية في عمل الجمعيات والمبادرات الخيرية، لأنَّ الغموض هو التربة التي تنمو فيها التنظيمات السريّة. كلُّ مبادرة لا تخضع للمساءلة يمكن أن تتحوّل - ولو بغير قصد - إلى قناة للاختراق.

أمّا الخارجون من هذه التنظيمات، فيحتاجون إلى إعادة بناء دوائر الأمان: صداقات حقيقية، بيئات احتضان، ومؤسسات تسمع دون إدانة. فالإدمان على الانتماء لا يُشفى بالوعظ، بل بالعلاقات الصادقة التي تُعيد للإنسان ثقته بالعالم.

### خاتمة الفصل:

إنَّ هندسة الولاء ليست انحرافاً عارضاً، بل انعكاسٌ لضعف المناعة العقلية والوجدانية في المجتمعات. التنظيمات السريّة التي تستغلُّ قضية الإمام المهدي ﷺ لا تنجح لأنّها قويّة، بل لأنّها تجد في الإنسان فراغاً يحتاج إلى مَنْ يملأه. وحين يُربّي الإنسان على الطاعة

(١) مُحفّ العقول (ص ٣٧).

الفصل السابع: هندسة الولاء (تفكيك البنية النفسية والعقلية لصناعة الطاعة...) ..... ١٤٣

الواعية لله، وعلى محاسبة نفسه بعقل مستنير، فإنَّ كلَّ ولاءٍ زائف ينهار  
وكلَّ فراغ نفسي أو وجودي يُملأ بالإيمان الواعي.

\* \* \*



الفصل الثامن:

## نائبُ الإمام وصناعةُ الطاعة

دراسة تحليلية في جماعة الياني أحمد الحسن ونسخها العالمية



حين يتأمل الإنسان سرَّ الوجود وتقلُّبات التاريخ، يبرز أمامه سؤالٌ قديمٌ متجددٌ: كيف تبقى الصلة بين الغيب والإنسان حيَّةً في زمن الغيبة؟ وكيف يمكن لعقلٍ محدودٍ أن يستدلَّ على حضورٍ لا يُرى، ومع ذلك يؤمن بأنَّ العالم ماضٍ نحو كمالٍ موعودٍ؟

في الرؤية الإمامية، الإمام المهدي عليه السلام ليس مجرد غائب عن الأنظار، بل تجلُّ للعقل الكلي في التاريخ، أي مظهرٌ للحكمة المتجلية لا حلولاً ولا تشبيهاً؛ العقل الذي به يُقام العدل وتوزن القيم. ومن هنا، فإنَّ الانتظار ليس سكوناً في الزمان ولا تعليقاً للفعل، بل عبادةً عقليةً عمليةً، من أرفع مراتب الإيمان، لأنَّها تُوحِّد بين الفكر والعمل، بين الأمل والمسؤولية. وقد ورد في الحديث الشريف: «أَفْضَلُ أَعْمَالِ أُمَّتِي إِنْتِظَارُ الْفَرَجِ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»<sup>(١)</sup>، أي انتظارٌ يُحرِّك القلب والعقل معاً، ويجعل المنتظر شريكاً في إصلاح الواقع لا هارباً منه. وكلَّما ازداد الانتظار صدقاً، ازداد عملُ صاحبه في إصلاح نفسه وعمرانه.

لكنَّ هذا المفهوم السامي كثيراً ما تعرَّض للتحريف حين تحوَّل الانتظار من فاعلية معرفية إلى حالة انفعالية يُستغلُّ فيها الشوق الإيماني لتبرير الوساطة والوصاية. وحين يُقدِّم الوسيط على أنه طريقٌ حصريٌّ

---

(١) كمال الدين (ص ٦٤٤ / باب ٥٥ / ح ٣).

إلى الإمام، تتراجع وظيفة العقل، ويتحوّل الانتظار من مشروع لبناء الإنسان إلى طقسٍ لتكريس التبعية. عند هذه النقطة، يتقدّم مدّعو النيابة الخاصّة الذين يصنعون لأنفسهم موقعاً داخل وجدان الناس، فيغدّون الحاجة إلى اليقين السريع على حساب الصبر العقلي الذي أراه الدّين امتحاناً للوعي.

في العراق، بعد عام (٢٠٠٣م)، ومع اضطراب الأحوال العامّة وفقدان الثقة المؤسّسية، برز أحمد بن إسماعيل الحسن في البصرة، يُقدّم نفسه على أنّه اليماني الموعود والوصيّ المباشر للإمام المهدي عليه السلام. استثمر فراغ المعنى والقلق الجمعي، فحوّل الخطاب المهدي من حالة رمزيّة عامّة إلى مشروع تنظيميّ سرّيّ. دعا أتباعه إلى (الرجوع إلى النصوص الأولى) و(نبذ التقليد الفقهي الجامد)، ثم ما لبث أن قدّم نفسه بوصفه الباب الذي يُفضي إلى الإمام. ومع الوقت، تحوّلت دعوته إلى جماعةٍ تحمل اسم (أنصار الإمام المهدي)، تمتلك مكاتب ومراكز تعليميّة وتعبويّة، وتُصدر كُتباً ومؤلّفاتٍ في (تأويل المتشابهات) وتفسير الرؤى، وتبني حولها شبكةً اقتصاديةً صغيرةً تُموّل استمرارها.

اللافت في هذه الجماعة ليس الفكرة المهديّة نفسها، بل التحوّل البنيوي في معنى الطاعة. فبدل أن تكون الطاعة للإمام تعبيراً عن التزام بالعدل والمعرفة، صارت طاعةً (للوسيط) (وللحجّي) الذي يُقدّم بوصفه المترجم الوحيد لإرادة الإمام. وهنا يقع الانقلاب العقلي: إذ يُصبح التوسّط طريقاً إلى السيطرة لا إلى الفهم، وتُستبدل علاقة

الفصل الثامن: نائب الإمام وصناعة الطاعة (دراسة تحليلية في جماعة البيهاني أحمد الحسن... ) ... ١٤٩

الإنسان بالحجة بعلاقته بالمدعي. ومن حيث التحليل المنطقي، فإن هذا التحول يُفرغ النيابة من معناها، لأنَّ النيابة - في الأصل - فرعٌ عن أصلٍ قائم على العلم والحجة، أمَّا حين تتحوَّل إلى أصلٍ مستقلٍّ، فإنَّها تفقد معناها وتُصبح معلولاً بلا علَّةٍ معرفية.

ما ساعد على ترسيخ هذه البنية هو ما يمكن تسميته بـ (تفكيك الظاهر والباطن في لغة الدعوة). ففي العلن، تبدو الدعوة خطاباً إصلاحياً دينياً يدعو إلى التمهيد للإمام، وإلى العودة للقرآن والعترة، وإلى تربية الأجيال على التقوى والعدل. لكنَّ الخطاب الداخلي للجماعة يُعيد تعريف هذه المفاهيم ذاتها: فـ (التمهيد) لا يعني إعداد النفس للموعد، بل التسليم للقائد الذي يُمهِّد، و(الرجوع إلى القرآن) لا يعني الاجتهاد في الفهم، بل تلقي التاويل الذي يُقدِّمه الوسيط، و(التقوى) تُختزل في الولاء الشخصي. بهذا الانفصال بين الظاهر والباطن تنشأ جماعةٌ مغلقةٌ تمتلك رموزها ومفرداتها وطقوسها الخاصة، وتحوَّل الغيب إلى نظامٍ من الإشارات يملك تفسيره شخصٌ واحدٌ.

ولأنَّ الفكر لا يعيش بلا سندٍ مادِّيٍّ، فقد سعت الجماعة منذ بداياتها إلى بناء ركائز اقتصادية وتعليمية تحفظ وجودها وتربط الولاء بالمنفعة. فأنشئت روضات ومدارس ومراكز ثقافية تحت شعاراتٍ تربويةٍ ظاهرها التعليم والتهذيب، وباطنها بثُّ الفكر الخاص، كما ظهرت واجهاتٌ تجاريةٌ ومكاتب عقاريةٌ يشارك فيها الأعضاء أو

يعملون ضمنها. وهكذا اندمج التعليم والاقتصاد في منظومةٍ واحدةٍ تحفظ الولاء وتؤمن التمويل وتعيد إنتاج الذات. في هذا البناء يُصبح المال وسيلةً للعبئة، والتعليم أداةً للتنشئة، والانتفاء مصدراً للرزق والمعنى في آنٍ واحدٍ. فالطاعة التي تُبنى على الفهم عبادة، والتي تُبنى على التعطيل تبعية.

بهذه المنهجية، يتحوّل الولاء من انفعالٍ دينيٍّ إلى نظامٍ اجتماعيٍّ يربط الناس بمصادر معيشتهم، ويُعيد صياغة وعيهم بحيث يصعب التفريق بين الإيمان والهوية. ولأنّ الإنسان يميل بطبعه إلى ما يُشعره بالأمان والانتفاء، فإنّ الجماعة تُقدّم له هذا الشعور المركّب: أمانٌ روحيٌّ في طاعةٍ مقدّسة، وأمانٌ معيشيٌّ في شبكةٍ متعاونة. ومن هنا تتولّد (الطاعة الجماعية) التي تلبس لباس الدين بينما هي، في حقيقتها، نظامٌ اجتماعيٌّ مغلقٌ يَحْتزِلُ العقل في الولاء.

إنّ الفكر الإمامي يرى في هذه البنية خطراً مزدوجاً: خطراً على الدين وخطراً على العقل. لأنّ الإمام المهدي عليه السلام هو برهان الله القائم بالحجة، وغيبته امتحانٌ لقدرة الإنسان على أن يستدلّ بالعلم لا بالعاطفة. فالذي ينتظر الإمام حقاً هو الذي يُصلح نفسه وعقله ويملاً زمانه بالعدل كما يملاً الإمام الأرض به عند ظهوره. أمّا مَنْ يجعل الانتظار ذريعةً لتعليق العقل وتسليم الوعي، فقد أساء إلى جوهر المهدوية من حيث لا يدري. فالإمام لم يُغِب نفسه ليُنشئ وسطاء، بل ليُنشئ عقلاً قادراً على الفهم دون وسيط، وإيماناً يعرف طريقه بالحجة لا بالوهم.

الفصل الثامن: نائب الإمام وصناعة الطاعة (دراسة تحليلية في جماعة اليمني أحمد الحسن...) ... ١٥١

ولذلك فإن الانتظار في جوهره عبادة عقل وفعل، لا مجرد توقع للغيب. هو تربية على الصبر الواعي، لا انفعال بالرؤى. هو عمل دؤوب لإصلاح الأرض، لا انسحاب منها. ومن لا يدرك هذا المعنى يقع في فخ الجماعات التي تسلبه حرّيته باسم الحب للإمام. فالحب الصادق يقتضي أن يكون المنتظر رشحة أو انعكاساً ولو بسيطاً عن الإمام ﷺ في فعله وعدله، لا تابعاً أعمى لمن ادعى القرب منه. ومن هنا، فإن أخطر ما في ظاهرة اليمني وأمثاله أنّها تُفرغ الانتظار من جوهره الإلهي - أي العمل في سبيل الإصلاح - لتجعل منه أداة للتمايز والانغلاق.

الانتظار إذن ليس انفعالاً، بل فلسفة وعي كاملة. هو اختبار يومي للعقل، لأن المؤمن يعيش بين الإيمان بالغيب وبين مسؤوليته عن الشهادة، بين تصديقه بالوعد الإلهي وسعيه في الأرض. فإذا توازن هذان البعدان، صار الانتظار عملاً عقلياً راشداً يُعبر عن أعلى درجات الإيمان. أمّا إذا اختلّ التوازن وغلبت العاطفة على البرهان، ظهر الوسيط بين الإنسان والإمام، وبدأت ظاهرة النيابة الزائفة تتكرّر في صورٍ متعدّدة.

بهذا المعنى، فإن دراسة جماعة اليمني ليست إدانةً لأشخاصٍ بقدر ما هي تفكيكٌ لبنية فكرية تكرّرت عبر التاريخ. فحين يُحاصر الإنسان بين الخوف من الفوضى والرغبة في الخلاص، يبحث عن منقذٍ بشريٍّ يُجسّد له المعنى، وهنا تنشأ (الوساطة الزائفة) التي تُقدّم له راحةً آنيّةً

بدل المعرفة الصعبة. لكنّ الإيمان الذي يقوم على الراحة لا يبني عقلاً، والولاء الذي يُعفي من التفكير لا يبني مجتمعاً. ومن أجل ذلك كان انتظار الفرج - كما تصفه الأحاديث - أعظم عبادة، لأنّه يُربّي الإنسان على العقل والصبر والعمل في آنٍ واحدٍ.

إنّ الفكر الإمامي حين يتحدّث عن النيابة لا يلغيها بوصفها مفهوماً، بل يردّها إلى معناها الصحيح: النيابة العامّة للعلماء، الذين يُمثّلون العقل الجمعي للأُمَّة، ويحفظون فكرها من الغلوّ والانحراف. فالعلماء لا يدعون اتّصلاً غيبياً بالإمام، بل يعملون بما تركه من منهج وقواعد. وبذلك يبقى الانتظار مفتوحاً على العمل والعلم، لا مغلقاً في شخصٍ أو رؤية باطنية. فكلُّ ادّعاء يتجاوز هذا الإطار هو خروج عن نظام العلة والمعلول.

وهكذا يتّضح أنّ الفرق بين الانتظار الحقيقي والانتظار المزيف هو الفرق بين مَنْ يجعل الإمام مبدأً للفعل، ومَنْ يجعله ذريعةً للركود. الأوّل يعيش المهدويّة كمشروع بناءٍ دائم، والثاني يعيشها كهويّة خفيةٍ تحتمي بالشعارات. والأوّل يراه العقل عبادةً، والثاني يراه التاريخ ظاهرةً من ظواهر الهروب من مسؤوليّة الوعي.

وإذا تجاوزنا حدود الجماعة في العراق، وسّعنا النظر إلى ظاهرة سُراق الانتظار عبر الأزمنة والأديان، تبرز أمامنا مشكلة فلسفية أعمق من الأسماء والأحداث: كيف تُسرق فكرة مقدّسة من داخل معناها من غير أن يفقد الناس ثقتهم بها؟ وكيف يتحوّل مفهوم إلهي رفيع

الفصل الثامن: نائب الإمام وصناعة الطاعة (دراسة تحليلية في جماعة البيهاني أحمد الحسن...) ... ١٥٣

كالانتظار إلى أداة للهيمنة؟ إنَّ الجواب لا يوجد في التاريخ، بل في بنية الفكر الإنساني نفسه، لأنَّ كلَّ ما يُستعمل من دون وعيٍ يُحتزَل في منفعتِهِ، وكلُّ ما يُحتزَل في المنفعة يتحوَّل إلى سلطة.

الانتظار في أصله عبادةٌ عقلٍ ووعيٍ، لا يقبل الوساطة ولا يحتمل الاختزال. إنَّ قيمته تكمن في أنَّه حركة الإنسان نحو الغيب بعقله لا بحواسِّه، وبمسؤوليته لا بعاطفته. فحين يُحوَّل هذا المفهوم إلى سلعةٍ رمزيَّة تُدار من قِبَل وسيطٍ يزعم التمثيل، نكون أمام ما يمكن تسميته فلسفيًّا بـ (الانتظار المسروق): أي استلاب الفكرة من معناها إلى وظيفتها. المبدأ هنا واضح: ما لا يُجدُّ لا يُمثَّل، وما لا يُمثَّل لا يُجعل طريقاً حصريًّا للمعرفة. وهنا يبدأ الانقلاب المنطقي: فالمفهوم الذي كان يُحرَّر يُصبح وسيلةً للتقييد، والدين الذي وُجدَ لتقوية العقل يُصبح غطاءً لضعفه.

\* \* \*



الفصل التاسع:

## العدالة المؤجلة

كيف تحوّل الانتظار من رجاء إنسانيّ إلى هندسةٍ للوعي؟



العدالة ليست أمنيةً مؤجلةً، بل هي نبض الضمير الإنساني في مواجهة التاريخ. وكلُّ أمةٍ تحمل في وجدانها إيماناً بوعد الله بالعدل، إنَّها تمتلك طاقةً أخلاقيةً تحفظ توازنها في وجه الفوضى. ومن هنا كانت عقيدة الإمام المهدي عليه السلام في وجدان المؤمنين أفقاً مفتوحاً على الأمل والعمل، لا على الانتظار السلبي أو العجز أمام الواقع. فالظهور لا يُختصر في حدثٍ خارقٍ يُغيِّر العالم، بل في مسارٍ من التهذيب المستمرِّ للنفس والمجتمع حتَّى يصير العالم مهياً لاستقباله.

في هذا الأفق، لا يُفهم الانتظار كتعليقٍ للزمن، بل كإيقاظٍ للزمن الأخلاقي داخل الإنسان. لأنَّ مَنْ ينتظر عدل الله لا بدَّ أن يُصبح هو نفسه صورةً من صور هذا العدل. وكلُّ انتظارٍ لا يُغيِّر صاحبه إنَّما يتحوَّل إلى عادةٍ نفسيةٍ، بينما الانتظار الإيماني يخلق فعلاً جديداً في كلِّ لحظة.

إنَّ المؤمن الحقَّ لا ينتظر الإمام ليُصلح له العالم، بل يحاول ويجهد لإصلاح ما يقدر عليه ليكون جديراً بظهوره. وهذا ما يجعل الانتظار امتحاناً متجدداً: فالمؤمن العامل في حدود قدرته إنَّما يشارك في مشروع الإمام نفسه. إنَّه يُمهِّد بفعله قبل لسانه، وبنقاء ضميره قبل دعائه.

غير أنَّ هذا البعد الأخلاقي في الانتظار لم يسلم عبر القرون من

محاولاتٍ لاحتكاره أو تشويهه. فكلَّمًا ازداد حضور فكرة العدالة الإلهية في وجدان الأمة، ازداد حرص أصحاب المصالح على إعادة تعريفها بما يخدمهم. بعضهم جعل الانتظار وسيلةً للهروب من المسؤولية، وبعضهم جعله ذريعةً للانغلاق والغيبية المفرطة، وبعضهم استخدمه كأداةً للهيمنة النفسية على البسطاء.

لقد أدركت التنظيمات السرية المنحرفة أن الانتظار طاقةٌ إنسانيةٌ جبَّارةٌ، وأن مَنْ يملك تفسيره يملك العقول. ومن هنا بدأت ما يمكن تسميته بـ (هندسة الوعي المهدوي)، أي محاولة تحويل الإيمان بالعدل الإلهي إلى هندسةٍ شعوريةٍ مغلقةٍ تُعيد تشكيل الفرد داخل نظامٍ من الطاعة والرموز، لا داخل وعيٍ من الفهم والمسؤولية.

هذه التنظيمات لا تُحارب فكرة الإمام المهدي عليه السلام، بل تُقرِّمها إلى حجم مشروعها البشري الصغير. فبدل أن تكون العقيدة المهدوية وعداً للأمم جمعاء، تُقدِّم كسرٍ مغلقٍ لا يعرفه إلا القائد وأتباعه. وبدل أن يكون الإمام رمزاً عالمياً للعدل، يُحتزَل في شخصٍ يُقدِّم نفسه ممثلاً عنه، ناطقاً باسمه، أو موصولاً به اتصالاً غيبياً. وهنا يحدث التحوُّل الأخطر: من الإيمان بالمهدي إلى الإيمان بمدَّعي الاتصال به.

تبدأ آليَّة السيطرة من اللغة، فاللغة في هذه الجماعات ليست وسيلة تواصل، بل وسيلة لإنتاج وعيٍ جديد. تُعاد صياغة المفردات لتخلق واقعاً خاصاً بها: الغيبة تُصبح حجاباً عن الحقيقة، السرُّ يُصبح شرطاً للمعرفة، الطاعة تتحوَّل إلى عبادةٍ في ذاتها، والشكُّ يُقدِّم

الفصل التاسع: العدالة المؤجلة (كيف تحوّل الانتظار من رجاء إنسانيّ إلى هندسةٍ للوعي؟).... ١٥٩

كمعصيةٍ ناتجةٍ عن ضعف النور. بهذه اللغة يُبنى جدارٌ رمزيٌّ بين الأتباع والعالم، حتّى لا يروا الحقيقة إلا من نافذة القائد.

ولأنّ الإنسان كائنٌ عاطفيٌّ، تبدأ التنظيمات باستثمار الحنين الروحي نحو العدالة لتكوين ولاءٍ وجدانيٍّ مغلقٍ. لا يُقال للأتباع: إنهم مقهورون، بل إنهم مختارون؛ لا يُقال لهم: إنهم منسحبون من الواقع، بل إنهم يحفظون سرّ السماء. وهكذا يُحوّل الانسحاب النفسي من المجتمع إلى عبادة، والعزلة إلى طهارة، والشك في الخارج إلى دليل صدقٍ في الداخل.

ومع مرور الوقت، تنشأ (هندسةٌ وجدانيّةٌ) متكاملةٌ: فكلُّ انفعالٍ وجدانيٍّ لدى الفرد يُعاد توجيهه نحو الجماعة. الفرح يُصبح فرحاً بنجاح الدعوة، والخوف خوفاً على القائد، والحبُّ حبّاً في الوسيط الذي يُقدّم بوصفه ظلّ الغيب. حتّى الدعاء يتحوّل من تضرّع إلى الله إلى تكرارٍ شعوريٍّ يربط القلب بالرمز البشريّ الذي يُمثّل الجماعة.

لكنّ الأخطر من ذلك هو ما تفعله هذه التنظيمات في إعادة تعريف الزمن. فهي تُقيم زمناً خاصّاً بها، موازٍ لزمان الناس، تُحدّد فيه مواعيد الظهور، وتُرتّب عليه نبوءاتٍ متكرّرة. وحين تفشل النبوءة، يُقال للأتباع: إنّ التأجيل امتحانٌ، وإنّ الإخلاص يُقاس بمدى الصبر على الغياب. بهذه الطريقة يتحوّل الانتظار من حالة يقظةٍ روحيةٍ إلى حالة سباتٍ وجدانيٍّ طويلٍ، يُقاس فيه الإيمان بمدى الصمت.

ولا تكتفي هذه الجماعات بتشويه معنى الانتظار، بل تعمل أيضاً

على تفكيك المرجعيّات الفكرية الحقيقيّة في الأُمَّة. تُشكك في العلماء، وتُصوّر المرجعيّة بوصفها (حاجزاً أمام الكشف)، لأنّ الفقيه عندهم لا يفهم الغيب بل يُقيّده. وهكذا تُعزل الجماعة عن جهازها العقلي الطبيعي، فيسهل قيادها بالعاطفة وحدها.

في هذه المرحلة، يُصبح الأتباع كائناتٍ رمزيّة تعيش في خطابٍ واحدٍ، لا في واقعٍ متعدّدٍ. يُلغى التفكير النقدي باسم النقاء، ويُقَمَع السؤال باسم الصفاء. كل ما هو خارج الجماعة يُعدُّ ظلمة، وكل من يشكُّ فيها يُتَّهم بالخيانة. ومع الوقت، يُبنى داخل النفس (رادارٌ روحيّ) يرفض أيّ ضوءٍ لا يأتي من القائد.

إنّهم لا يسرقون الإيمان بالمهدي، بل يسرقون طاقته التربويّة، ويُحوّلونها من قوّة تحرريّة إلى وسيلة للضبط. بدل أن يكون الإمام ملهماً للتفكير، يُصبح اسمه ذريعةً لإيقاف التفكير. وبهذا تُنتج التنظيمات نوعاً من (السكينة الموجهة) التي تُخدّر الوعي وتمنح أتباعها إحساساً بالسلام الزائف.

ومع كلّ دورةٍ من الدعاوى الجديدة، يزداد اغتراب الأتباع عن المجتمع، حتّى يظنّوا أنّ خلاصهم لا يكون إلّا بالبقاء داخل هذا الإطار. إنّهم يعيشون في عالم موازٍ له منطقته، ومفرداته، ونظامه العاطفي، وزمنه الخاصّ، وأيُّ محاولةٍ للعودة إلى الواقع تُشعرهم بالفقد.

إنّ أخطر ما تفعله هذه الحركات ليس في فكرها، بل في تفكيكها

الفصل التاسع: العدالة المؤجلة (كيف تحوّل الانتظار من رجاء إنسانيّ إلى هندسةٍ للوعي؟).... ١٦١

للبنية النفسية للإنسان المؤمن. فهي تجعل العلاقة مع الله تمرّ عبر بشرٍ محدودٍ غير معصوم، وتجعل الطاعة معيار الطهارة، وتجعل الخطأ في القائد مستحيلاً لأنّ (الواسطة لا تُخطئ). وهكذا يتحوّل الإيمان إلى نظام مغلقٍ لا يقبل المراجعة.

غير أنّ هذه المحاولات تبقى هامشية أمام عمق الوعي الجمعي للأمة. فالإيمان بالمهدي ﷺ متجدّدٌ في وجدان قرآنيّ ونبويّ طويل، تحرسه المرجعية الدينية والعقل الفقهيّ الواعي، وتحفظه التجربة الحسينية التي علّمت الناس أنّ الإيمان لا يُشترى بالرموز ولا يُختزل في الأشخاص. فهذه الجماعات الصغيرة مهما رفعت الشعارات تبقى ظواهر عابرة، لأنّ الوجدان المهدي في الأمة أعمق من أن يُختطف.

### العزلة المنهجية.. من الطاعة إلى الانغلاق:

حين تُغلق التنظيمات المهدوية المنحرفة ووعي أتباعها داخل شبكة من الرموز والعواطف، تبدأ مرحلة جديدة من السيطرة: العزلة المنهجية، العزلة هنا ليست انسحاباً جسدياً فقط، بل انقطاع شعوريّ عن العالم. فالمريد لا يعيش بين الناس إلّا جسداً، أمّا وجدانه فيُعاد توجيهه نحو جماعته، التي تُقدّم له كالعالم الوحيد النقيّ في زمنٍ ملوّث. هذه العزلة تُقدّم له في صورة (طهارة) لا في صورة (انفصال). يُقال له: إنّ الناس غارقون في الغفلة، وإنّ الحفاظ على نقاء الإيمان يتطلب الابتعاد عن المجتمع. ومع الوقت، تُزرع في داخله قناعةٌ خفيةٌ بأنّ الخروج إلى العالم خيانةٌ للمهدي، وأنّ الكلام مع المختلفين ثلوث،

وأنَّ الجلوس مع العامَّة ضعفٌ في الصفاء. وهكذا تتحوَّل الحياة اليوميَّة إلى ساحة شكٍّ دائمٍ في الآخرين، ويُعاد تعريف الطاعة بأنَّها الحاجز الذي يحميه من السقوط.

إنَّ هذه العزلة لا تُفرض بالقوَّة، بل تُزرع بالحبِّ والرغبة معاً. الحبُّ للقائد الذي يُمثِّل الغيب في نظرهم، والرغبة من فقدان (الرضا السماوي) إذا ابتعدوا عن الجماعة. بهذا المزيج المعقَّد من العاطفة والخوف تُبنى أقوى أشكال العبوديَّة: العبوديَّة الطوعيَّة التي تُفنع المرید أنَّه يختار حبَّه بإرادته.

وحيث تستقرُّ العزلة في وجدان الأتباع، تتشكَّل لديهم منظومة معرفيَّة بديلة. العالم الخارجي يُقدَّم لهم كعالمٍ منحرفٍ عن مسار الحقيقة، والناس الآخرون كضحايا أو أعداء. وبمرور الزمن، يفقد المرید قدرته على التواصل الطبيعي مع مَنْ هم خارج التنظيم، لأنَّه لم يُعد يرى فيهم شركاء في الإنسانيَّة، بل درجاتٍ أدنى من الوعي الروحي. هذه الرؤية الهرميَّة تُنتج شعوراً بالتفوق المقدَّس، يجعل من الحوار مع الآخرين مضيعةً للصفاء.

ومن الناحية النفسيَّة، هذه الحالة تُنتج ما يُمكن تسميته بـ (الانغلاق المعنوي). أي إنَّ الفرد لا يعيش داخل الجماعة فقط، بل يعيش بها وعياً وذاكرةً وتفسيراً للعالم. لا يرى الله إلاَّ من خلالها، ولا يفهم القرآن إلاَّ وفق تأويلها، ولا يشعر بالسكينة إلاَّ بوجودها. فتُصبح الجماعة هي الإطار الوجودي الذي يُحدِّد معنى النجاة والخلاص.

الفصل التاسع: العدالة المؤجلة (كيف تحوّل الانتظار من رجاء إنسانيّ إلى هندسةٍ للوعي؟).... ١٦٣

ومع الوقت، ينسى الفرد كيف يفكر لنفسه. كلُّ سؤالٍ يُحيله إلى (الواسطة)، وكلُّ مشاعر القلق أو الارتباك يُعيد تأويلها بوصفها امتحاناً لإيمانه. هكذا يلغى الحسُّ النقدي ويُسْتبدل بحسِّ طقوسيّ يُعيد إنتاج الانقياد. وحين يُحاول أحد الأتباع التحرُّر من هذا النظام المغلق، يُصاب بما يشبه (الفقد الوجودي)، لأنَّ ذاته انصهرت في الكلِّ، والكلُّ لم يعد له معنى بدونه.

إنَّ أخطر ما في هذه الحالة أنَّها تُحاكي الدِّين دون أن تكونه. فهي تستخدم لغة الإخلاص، لكنَّها تُفرِّغها من معناها الأخلاقي. تُشجِّع على الطاعة، لكنَّها تُلغي المسؤولية. تُكثِّر الحديث عن الغيب، لكنَّها تجعل الغيب حكراً على الوسيط. وتُرَدِّد أدعية الظهور، لكنَّها تُفرِّغها من بعدها العالمي، لتُصبح نداءً خاصاً لجماعةٍ تعتبر نفسها الأمة المختارة.

ومع ذلك، لا يمكن تجاهل أنَّ هذه الحركات تنجح لأنَّها تتسلَّل من فجوات المجتمع والدِّين. فحين يضعف الوعي الدِّيني التربوي، وحين يغيب الخطاب العميق عن المنابر، يجد الناس في هذه التنظيمات دفئاً عاطفياً يُعوِّضهم عن الخواء. لذلك، لا يمكن مواجهة هذه الانحرافات بالاتِّهام أو التخوين، بل بإعادة ملء الفراغ الروحي والمعرفي في المجتمع، وبإحياء المعنى الإيماني الصحيح للانتظار.

فالانتظار في جوهره ليس انسحاباً من العالم، بل مشاركةٌ في صنعه. مَنْ ينتظر الإمام حقاً هو مَنْ يجعل العالم أكثر صلاحاً كي يكون أهلاً للقاء العدل. أمَّا مَنْ يهرب إلى الغيب ليُعفي نفسه من المسؤولية،

فهو في الحقيقة يُؤجّل رسالته. لذلك فإنّ المقاومة الحقيقيّة لهذه الجماعات لا تكون بالهجوم عليها فقط، بل بتربية الإنسان على أن يرى في الانتظار عملاً إصلاحياً دائماً، لا زمناً خامداً.

### استعادة الوعي المهدي الصحيح:

الوعي المهدي ليس فكرة تُلقن، بل حالة من النضج الروحي والعقلي معاً. هو وعيٌ يجعل الإنسان يعيش في الغيب دون أن يغيب عن العالم. والغيب في هذا المعنى ليس هروباً من الواقع، بل حضوراً إيمانياً يربط الأرض بالسماء عبر الفعل والضمير. من هنا فإنّ استعادة الوعي المهدي الصحيح تمرُّ عبر ثلاثة محاور أساسية:

#### أولاً: تطهير المفهوم من الوسائط الزائفة:

فالإمام المهدي ﷺ لم يترك الناس في ضياع، بل أرشدهم في زمن الغيبة إلى طريق واضح: الرجوع إلى العلماء الثقات الذين يحملون علمه وينشرون هديه. هذا هو صمّام الأمان الذي يمنع اختطاف العقيدة. ولذلك، فإنّ أيّ دعوى بالاتّصال الخاصّ أو السفارة أو النيابة تُخالف صريح توجيهاته ﷺ، لأنّها تُعيد فتح بابٍ أغلقه بنفسه.

#### ثانياً: إعادة توجيه الانتظار نحو العمل:

الانتظار ليس تبريراً للعجز، بل دعوةٌ إلى الإعداد. والمؤمن الذي ينتظر لا ينزل، بل يُشارك في بناء المجتمع الصالح. إنّ الإمام المهدي ﷺ لا ينتظر جماعةً من الحالمين، بل أمّةً من العاملين. وكلُّ خطوةٍ في طريق الإصلاح هي لبنةٌ في صرح العدالة الموعودة.

الفصل التاسع: العدالة المؤجلة (كيف تحوّل الانتظار من رجاء إنسانيّ إلى هندسةٍ للوعي؟).... ١٦٥

### وثالثاً: تحصين الإيمان بالرجاء لا بالخوف:

فالتنظيمات المنحرفة تبني ولاءها على الخوف من الانفصال، بينما الوعي المهدوي الأصيل يبني العلاقة مع الله على الرجاء والثقة. الرجاء هو الذي يُبقي القلب حياً، والخوف وحده يصنع العبيد. لذلك فإنّ طريق النجاة لا يمرُّ عبر الرعب من الغياب، بل عبر الأمل في الحضور. هذه المحاور الثلاثة يستعيد المؤمن توازنه: فهو يؤمن بالغيب دون أن يتنازل عن عقله، ويتبع المرجعيّة دون أن يُلغي ذاته، ويتنظر الإمام دون أن يتخلّى عن مسؤوليّته. هذا هو الوعي الذي أرادته الأئمة للمؤمنين في عصر الغيبة: أن يكونوا أوفياء في الفكر والعمل، لا أسرى في العاطفة والانفعال.

### الوعي المهدوي في الأمة.. وعد لا يُختطف:

ورغم كلّ الضجيج الذي تُحدثه التنظيمات الصغيرة، يبقى الوعي المهدوي في الأمة أوسع من أن يُحتزل فيها. إنّه وعيٌ صنّع عبر قرونٍ من التجارب، تغذّى من كربلاء، وتربّى على فكر الأئمة عليهم السلام، وحُمي بعقل المرجعيّة الرشيدة التي كانت دائماً الحصن الأمين للإيمان. فكلّما حاولت فئة أن تحتكر الغيب أو تتلاعب بالعقيدة، برزت المرجعيّة لتعيد الأمور إلى نصابها، لا بالسيف بل بالكلمة والبرهان. إنّ المرجعيّة اليوم ليست مجرد مؤسسة علميّة، بل ذاكرة الأمة وضميرها. فهي التي تُذكر الناس أنّ الانتظار ليس فراغاً، وأنّ الإمام لا يُنتظر بالكسل ولا يُعرف بالمدّعين. هذه المرجعيّة هي التي حفظت

الإيمان من الاختطاف، وصانت الناس من الوقوع في فوضى الوهم. وحين تُدرك أنّ الارتباط بالمرجعية هو صمّام الأمان، نفهم لماذا بقي الوعي الجمعي للمؤمنين عصياً على الاختراق، رغم ما بذله مدعو الاتصال بالغيب من محاولات.

إنّ هذه التنظيمات، مهما علا صوتها، تبقى هوامش في الوعي الإسلامي. فالأمة التي عاشت الانتظار في ليها الطويل لا يمكن أن تُخدع بدعوى سريعة. الوعي المهدي في القلوب ليس صناعة جماعة ولا جهد خطيب، بل ثمرة إيمانٍ ممتدّ عبر التاريخ، وإرث شهادةٍ حفظت للأمل معناه.

### خاتمة الفصل.. الرجاء الذي لا يموت:

الانتظار ليس خوفاً من العالم، بل إيماناً بأنّ العالم يستحقّ الإصلاح. ومن يعيش هذا الإيمان لا يمكن أن يكون أسيراً لجماعة أو لرمزٍ يختصر الغيب في ذاته. فالمؤمن الصادق ينتظر لأنّه يرى في كلّ لحظةٍ من حياته فرصةً للاقتراب من عدل الله. إنّ الوعي المهدي الحقيقي هو أن تعيش حضور الإمام في ضميرك من خلال أفعالك، لا من خلال شعاراتك.

ومهما تغيّرت الأزمنة وتعدّدت الدعوات، سيبقى هذا الوعي هو الحارس الصامت للعقيدة، لأنّه وعيٌ متجدّدٌ في الرجاء الحسيني، الذي علّم الأجيال أنّ الدم ينتصر على السيف، وأنّ الغيب ليس غياباً، بل وعداً بالعدل. فالأمة التي عرفت طريقها إلى الله عبر الحسين عليه السلام لا يمكن أن تُضللّ في طريقها إلى المهدي عليه السلام.

الفصل العاشر:

## تحرير العقول المخطوفة

من الاستلاب إلى العودة الآمنة للمجتمع



كُلُّ مجتمعٍ يواجه خطر التنظيمات السريّة لا يكتفي بمواجهتها أمنياً أو فكرياً، بل يواجه بعد ذلك التحدّي الأصعب: كيف يتعامل مع أولئك الذين خرجوا منها، أولئك الذين عاشوا لسنواتٍ داخل منظومةٍ مغلقةٍ من المعاني والطقوس والولاءات حتّى صارت جزءاً من هويّتهم؟ التحرُّر من التنظيم لا يعني الشفاء الكامل؛ فالعقل الذي اعتاد السجن لا يعرف كيف يتصرّف حين يُفتح الباب. كثيرٌ من الخارجين من هذه التنظيمات يقفون على حافة العالم الجديد حائرين: لا هم منتمون بعدُ إلى مجتمعهم، ولا هم قادرون على العودة إلى جماعتهم السابقة. ومن هنا تأتي مسؤوليّة المجتمع، لا بوصفه رقيباً أو قاضياً، بل بوصفه الحاضنة التي تُعيد للإنسان ثقته بالعالم وبذاته.

فالتحرير الحقيقي لا يتمُّ حين تنهار التنظيمات، بل حين يستعيد الفرد وعيه ككائنٍ حرٍّ قادرٍ على التفكير واتخاذ القرار دون وصاية. إننا لا نتحدّث عن علاجٍ نفسيٍّ كما يفعل الأطباء، بل عن تحرير إنسانٍ للعقل من وهم القداسة المطلقة، وعن إعادة بناء العلاقة بين الإنسان وضميره بعد أن صودرت هذه العلاقة باسم الغيب أو النيابة عنه.

الذين يعيشون داخل هذه الجماعات لا يُدركون غالباً أنّهم ضحايا. هم يرون أنفسهم صفوةً اصطفاها الله لتمهيد الطريق، أو

طلائع الخلاص في زمن الغيبة. لكنَّهم في الواقع فقدوا شيئاً أعظم من الحرِّيَّة السياسيَّة أو الاجتماعيَّة: فقدوا ملكيَّة أنفسهم. حين يُقنَع التنظيمُ الفردَ بأنَّ الحقيقة لا تُدرَك إلاَّ عبر وسيطٍ إلهيٍّ أو (بابٍ غيبيٍّ)، يُصبح العقل تابعاً، والإرادة مؤجَّلة، والضمير رهينةً لفهم واحدٍ لا يُناقش. الضحيَّة هنا ليست مكرهَةً بالقوَّة، بل مستلبةً بالإيمان؛ وهذا هو أخطر أنواع الأسر. فالذي يُجبرَ يمكن أن يتمرّد، أمَّا الذي يُقنَع بأنَّ عبوديَّته طاعةٌ لله، فإنَّه يُدافع عن سجنه كما يُدافع عن قدره. وهكذا تتحوَّل الجماعة إلى فضاءٍ من الطاعة المطمئنَّة، تُعيد تعريف الطهر بالانقياد، والعقل بالتسليم، والتفكير بالشكِّ.

لكنَّ هذا الهدوء الظاهري يُخفي وراءه جرحاً عميقاً: الخوف من الذات. فالعضو يتعلَّم أن يشكَّ في نفسه أكثر ممَّا يشكُّ في قائده، وأن يراقب خواطره قبل أن يراقب الآخرين. ومتى فقد الإنسان ثقته بنفسه، أصبح تابعاً أبدياً، حتَّى لو خرج من التنظيم ظاهرياً. ليس كلُّ انتماءٍ دينيٍّ استلاباً؛ فالإيمان الحقُّ يقوم على الوعي، على المعرفة التي تُنير الطريق لا التي تُغلقه. لكنَّ الخطَّ الفاصل بين الإيمان الحرِّ والاستلاب العقائدي رفيعٌ ودقيقٌ كالشَّعرة: فحين يتحوَّل الإيمان من علاقةٍ حيَّةٍ بالله إلى علاقةٍ عموديَّةٍ بشخصٍ أو جماعةٍ تدَّعي امتلاك الحقيقة، يبدأ التحوُّل. يُقال للمريد: إنَّ الشكَّ خطيئةٌ، وإنَّ التساؤلَ نقصٌ في اليقين، وإنَّ (السمع والطاعة) طريق النجاة. وهكذا يُحتزَل الدِّين إلى ولاءٍ شخصيٍّ مغلقٍ، ويُستبدَل الوحيُّ بتفسيرٍ واحدٍ لا يُردُّ.

الفصل العاشر: تحرير العقول المخطوفة (من الاستلاب إلى العودة الآمنة للمجتمع) ..... ١٧١

في البداية، يبدو الأمر بريئاً: جلساتُ ذِكرٍ، وقراءةُ دعاءٍ، وتأملٌ في الغيب. لكنَّ هذا الجوّ الوجداني يُستعمل لتثبيت فكرةٍ واحدةٍ: أنَّ هناك مَنْ يفهم عن الله أكثر من الجميع، وأنَّ الطاعة له طاعةٌ للإمام الغائب. ومن هنا يبدأ الانزلاق: من عبادة الله إلى عبادة مَنْ يتحدث باسمه. وهذا التحوُّل لا يحدث فجأةً، بل عبر تراكمٍ بطيءٍ للعواطف، حتَّى يُصبح الحُبُّ للقائد بديلاً عن الحُبِّ لله.

حين يبدأ أحدهم في الشكِّ أو التساؤل داخل الجماعة، يُعامل كمن أُصيب بمرضٍ روحيٍّ خطيرٍ. تُحاصره النصائح والتهديدات الناعمة: (إيَّاكَ أَنْ تُفسِدَ إيمانَكَ بالعقل)، (إنَّ الله يُختبركَ). هذه اللحظة، لحظة الانفصال الذهني، هي أخطر وأجمل لحظة في حياة الضحيَّة. إنَّها تشبه لحظة استيقاظٍ من حلمٍ طويل، فيها لذَّة الاكتشاف، وألم الفقد، وخوف الوحدة. مَنْ يخرج من الجماعة لا يخرج منها بكلمة، بل بدموعٍ وصراعٍ داخليٍّ طويلٍ. فهو يفقد فيها عائلته الرمزيَّة، ومصدر معناه، ومجتمع المصغَّر الذي كان يملأ فراغه العاطفي. ولهذا يجب أن يُفهم الخارجون من هذه التنظيمات لا كمتمرِّدين، بل كمولودين من جديد، يحتاجون إلى رعاية اجتماعيَّة وأخلاقيَّة كي يتعلَّموا المشي في فضاء الحرِّيَّة من دون أن يتعثَّروا.

التحرُّر يبدأ من سؤالٍ بسيطٍ: لماذا أوَّمن بما أوَّمن به؟ هذا السؤال الذي كان يُمنع طرحه داخل الجماعة هو بذرة الشفاء. ففي كلِّ مرَّة يسأل فيها الخارج نفسه عن سبب إيمانه أو طاعته، ينكسر خيطٌ من

خيوط الوصاية. لكنَّ طرح السؤال لا يكفي؛ يجب أن يجد مَنْ يصغي إليه دون أن يُحاكمه. وهنا يأتي دور المجتمع في أن يُعيد تعريف الإيمان بأنَّه رحلة بحثٍ مستمرَّة لا عقد إذعان.

وحين يبدأ الخارج من الجماعة في بناء رأيه الخاصِّ، يشعر بالخوف أولاً: هل يحقُّ لي أن أفكِّر وحدي؟ هل أخطئ لو اختلفت معهم؟ وهذه الأسئلة نفسها دليلٌ على أن التحرُّر قد بدأ فعلاً، لأنَّ الوعي لا يُولد من الإجابات الجاهزة، بل من الأسئلة التي تُربك الراحة الزائفة.

أخطر ما يواجهه الخارج من التنظيم ليس الملاحقة ولا الفقر، بل الفراغ. لقد عاش لسنواتٍ ضمن جماعةٍ تُخبره ماذا يفعل، ومتى يصمت، وكيف يُحبُّ، ولمن يُبغض. فحين يخرج، يجد نفسه أمام صمتٍ واسع: لا أوامر، لا طقوس، لا هدفٍ يوميٍّ يُنظَّم مشاعره. هذا الفراغ يشبه العطش بعد الإفاقة من تخديرٍ طويل؛ يريد أن يملأه بأيِّ معنىٍ جديد، وأحياناً يعود إلى التنظيم فقط ليتخلَّص من هذا الصمت. ولهذا يحتاج المجتمع إلى أن يمنحه بدائل آمنة للانتماء، لا جماعات جديدة، بل دوائر إنسانيَّة صادقة من الأصدقاء، الأنشطة، والمشاريع التي تُشعره أنَّه ليس وحيداً. الانتماء حاجةٌ بشريَّة عميقة، وإذا لم نجد لها مخرجاً صحياً، ستجد طريقها من جديد إلى أحضان الجماعات المغلقة.

الخارج من التنظيم لا يحتاج إلى أن نُعيد تعليمه العقيدة، بل إلى أن نُعلِّمه الثقة بعقله. أن نقول له: إنَّ السؤال ليس جريمة، وإنَّ الله لا يخاف من الفكر. في البدء سيخاف من التفكير الحرِّ، لأنَّه تربُّى على أن

الفصل العاشر: تحرير العقول المخطوفة (من الاستلاب إلى العودة الآمنة للمجتمع) ..... ١٧٣

الحرية فتنه. لكن الحرية الفكرية ليست ضد الإيمان، بل شرطه الأسمى. فالعقل الذي لا يسأل لا يعرف كيف يؤمن، والضمير الذي لا يختار لا يعرف كيف يُطيع. يجب أن يُدرَّب الخارج على أن يكون صاحب قرار لا تابعاً جديداً. أن يعرف أن الحقيقة لا يملكها أحد، وأن الإيمان لا يحتاج إلى تصاريح. كل إنسان مؤمن هو جزء من مشروع الله في الأرض، لا أداة في يد بشر. وحين يدرك هذه الحقيقة، يبدأ بالتعافي من استلابه.

من خرج من الجماعة لا يحتاج إلى من يقول له: (كنت على خطأ)، بل إلى من يقول له: (أنت مرحب بك). اللوم لا يُحرر، بل يُعيد بناء الجدار القديم. الكلمة التي تُشفيه ليست (أخطأت)، بل (أنت إنسانٌ شجاع لأنك اخترت). حين يُقابل الخارج من الجماعة باحتقار أو سخرية، يعود إلى الجهة الوحيدة التي كانت تحترمه، أي الجماعة السابقة. أمّا حين يُقابل بالاحترام، فإن ثقته بالإنسان تعود قبل ثقته بنفسه. وهكذا يُصبح الاحتضان علاجاً أخلاقياً لا نفسياً. فنحن لا نُغيّر أفكاره بالقوة، بل نُعيد تعريف العالم أمامه: عالمٌ يمكن أن يكون طيباً، رحيماً، لا يحتاج إلى وسيط كي يمنحه المعنى.

التحرر لا يعني رفض الماضي، بل فهمه. الذين خرجوا من الجماعات يجب أن يُشجَّعوا على النظر إلى تجربتهم كجزء من مسيرة نحو النضج، لا كوصمة من العار. فالماضي ليس خطيئة، بل معلّم. والمجتمع الذي يُسامح الخارجين يُعلّمهم أن الكرامة لا تُستعاد

بالإنكار، بل بالتصالح. العودة الآمنة إلى المجتمع تتطلب أن يشعر الخارج أنه يستطيع أن يتحدث عن تجربته دون أن يُستهزأ به أو يُتهم بالضعف. حين يتكلم، يبدأ بالتحرُّر من الذاكرة الموجهة، ويُحوّل الألم إلى وعي. إنَّ الكلام في ذاته فعلٌ شفاءٍ رمزيٍّ، لأنَّه يفتح النوافذ التي أُغلقت طويلاً في الداخل.

كثيرٌ من الخارجين من هذه الجماعات يعيشون صراعاً بين الخوف من العودة والحنين إلى الأمان القديم. إنَّهم لا يحنُّون إلى الفكرة، بل إلى الشعور بالانتماء. ولذلك يجب أن نفهم أنَّ الانتماء إلى الجماعة لم يكن خطأً محضاً؛ لقد كان حاجةً نفسيةً وجماعيةً لإيجاد معنى للحياة. لكنَّ الخطأ كان في تحويل هذا الانتماء إلى عبودية فكرية وعاطفية. من هنا، فإنَّ دور المجتمع ليس إقناعهم بأنَّهم كانوا ضالِّين، بل إقناعهم بأنَّهم اليوم أحرارٌ في أن يجدوا انتماءهم الحقيقي خارج الأسوار.

حين يخرج العضو السابق إلى المجتمع، يشعر بأنَّ العالم غريبٌ عليه: الناس يتحدثون بلغةٍ مختلفةٍ، والأفكار تتزاحم بلا مركز، ولا أحد يقول له ما الصواب وما الخطأ. في هذه الفوضى، قد يحنُّ إلى البساطة القديمة، إلى الإجابات الجاهزة التي كانت تريجه. لكنَّ المجتمع الذكي لا يملأ هذا الفراغ بالمواعظ، بل يمنحه أدوات الفهم. أن يُعلِّمه كيف يختار، لا ماذا يختار. أن يُرشده إلى التفكير، لا إلى التسليم الجديد. إنَّ كلَّ جهدٍ يبذله الخارج لاستعادة قدرته على الاختيار هو خطوة نحو استرداد ذاته التي أضاعها في الطاعة العمياء.

الفصل العاشر: تحرير العقول المخطوفة (من الاستلاب إلى العودة الآمنة للمجتمع) ..... ١٧٥

حين يبدأ الخارج من التنظيم في خوض تجربة العودة إلى المجتمع، تكون أولى تحدياته هي الخوف من الانكشاف. يشعر أنه تحت المراقبة، وكأن الجميع يقرأ تاريخه من ملاحظه، فيبالغ في الصمت كي لا يُسئل، ويُخفي رأيه كي لا يُدان، ويضع بينه وبين الآخرين جداراً من الحذر. هنا تأتي مسؤولية المجتمع في أن يُقدّم له الطمأنينة الأولى، أن يُجبره بلا كلمات أن الناس لا يراقبونه، وأن العالم أكبر من ذاكرته القديمة. فالذي عاش طويلاً في دائرة مغلقة لا يعرف كيف يعيش في فضاء مفتوح، يحتاج إلى مَنْ يُعيد تعريف الأمان له من جديد، الأمان الذي لا يقوم على الطاعة بل على الثقة، ولا على المراقبة بل على الاحترام.

في هذه المرحلة يكون الصوت الداخلي للخارج متناقضاً: نصفه يشك في كل شيء، ونصفه يشفق إلى الماضي. لا يريد العودة، لكنه لا يعرف أين يتجه. إنه في مفترقٍ نفسيٍّ دقيقٍ؛ أيُّ إدانةٍ أو سخريةٍ قد تدفعه للنكوص، وأيُّ احتواءٍ صادقٍ قد يمنحه الشجاعة للمضيّ قدماً. لذلك يجب أن تكون المقاربة قائمةً على الفهم لا الوعظ، وعلى التقبّل لا التوجيه. فكلُّ مَنْ خرج من جماعةٍ مغلقةٍ لا يحتاج إلى مَنْ يشرح له الخطأ والصواب، بل إلى مَنْ يُشعره أنه ما زال إنساناً كاملاً رغم كلِّ شيء.

المجتمع الذي يريد أن يُنقذ هؤلاء لا يحقُّ له أن يُعيد إنتاج السلطة عليهم تحت اسم الإصلاح. فكما استُعبدوا في جماعاتهم باسم الطاعة، يمكن أن يُستُعبدوا مجدداً باسم التوبة أو التهذيب أو الوعظ.

ينبغي أن نفهم أن الكلمة التي تُعيد إليهم إنسانيتهم ليست (ارجع إلى الطريق)، بل (اختر طريقك بحريّة، ونحن معك ما دمت إنساناً كريماً). حين يُقال له ذلك، يبدأ في الشعور بأن قيمته لا تأتي من الانتماء، بل من ذاته.

إن أعظم ما يمكن أن يُقدّمه المجتمع لهؤلاء هو المساحة الآمنة للتفكير. المكان الذي يُسمح فيه بالأسئلة دون تهمة، وبالاختلاف دون استهجان. فالعقل الذي عاش طويلاً في بيئة تُخيفه من السؤال يحتاج إلى أن يسمع مَنْ يقول له: (اسأل، فالله لا يخاف من الحقيقة)، هذه العبارة وحدها قادرة على كسر جدار الخوف الذي تربى عليه. لأن الخوف من السؤال ليس خوفاً من الخطأ، بل خوفٌ من الحرّية نفسها.

ولا تكتمل الحرّية إلا حين تتحوّل من فكرة إلى ممارسة يومية. حين يتعلّم الخارج أن يُعبّر عن رأيه في بيئة تحترم الرأي، وحين يدرك أن خطأه لا يعني سقوطه، بل بداية فهم جديد. هكذا فقط تُبنى الثقة. المجتمع الذي يُكافئ الصراحة يُنتج مواطنين أحراراً، والمجتمع الذي يُكافئ الطاعة يُنتج تابعين. والفرق بين الاثنين هو ما يصنع المستقبل.

الخارج من التنظيم يحتاج إلى مَنْ يسمع قصّته كاملة دون استعجال، لا ليُصدّقها أو يكذبها، بل ليُخفّف عنه ثقلها. فالكلام في هذه الحالة ليس تبريراً، بل تفرّغٌ للألم. إن سنواتٍ من الكبت والإنكار والرقابة الذاتية لا تزول بالصمت، بل بالاعتراف. والاعتراف لا يعني فضح الذات، بل التصالح معها. حين يُنصت أحدهم لخارجه بعطفٍ

الفصل العاشر: تحرير العقول المخطوفة (من الاستلاب إلى العودة الآمنة للمجتمع) ..... ١٧٧

واحترام، فإنَّه يساعده على أن يكتشف أنَّه لم يكن شريراً، بل كان تائهاً. وهذا الفهم هو بداية الشفاء الحقيقي.

ثم تأتي مرحلة إعادة بناء العلاقات الاجتماعية. فالذي عاش سنواتٍ ضمن جماعةٍ مغلقةٍ يجد نفسه بعد الخروج بلا أصدقاء، بلا دائرةٍ تشبهه، وبلا لغةٍ يفهمها الآخرون. ولهذا يجب أن نخلق له بيئاتٍ جديدةٍ للانتماء الإنساني: دوائر ثقافية، أعمال تطوعية، لقاءات فكرية مفتوحة، ومساحات تواصل خالية من الوصاية. ليست الفكرة أن نملاً حياته بالنشاطات، بل أن نُشعره بأنَّ العالم لم يُغلق أبوابه بوجهه، وأنَّ المجتمع أوسع من الخلية التي خرج منها.

ينبغي أيضاً أن يتعلَّم المجتمع ألا يُعيِّر الخارجين بماضيهم. فكلُّ تلميحٍ إلى انتماهم القديم يُعيد فيهم عقدة الخوف والعار. يجب أن نُعاملهم بوصفهم ناجين لا مخطئين، وشجعاناً لا متراجعين. فالخروج من جماعةٍ مغلقةٍ هو فعل شجاعةٍ نادر، لأنَّه مواجهةٌ مع الذات قبل أن يكون تمرُّداً على السلطة. ومن واجبنا أن نكافئ هذه الشجاعة بالاحترام لا بالريبة. فكلُّ كلمة احتضانٍ تُعيد ثقة إنسانٍ بنفسه، وكلُّ نظرة ازدراءٍ قد تدفعه إلى الرجوع إلى السجن الذي هرب منه.

التحرير لا يكتمل دون أن يُعاد تعريف الكرامة. فالكثير من الخارجين يشعرون بأنَّهم فقدوا كرامتهم حين اكتشفوا أنَّهم كانوا أداةً في يد غيرهم. لكنَّ الكرامة لا تضيع حين يُخدع الإنسان، بل حين يتوقَّف عن السعي لفهم الحقيقة. الكرامة ليست في العصمة، بل في

الشجاعة على التصحيح. والمجتمع الذي يحتضن الخارجين عليه أن يُذكّرهم بأن الخطأ لا يُلغي القيمة، وأن التجربة - مهماً كانت مؤلمة - يمكن أن تتحوّل إلى حكمة.

وفي كلّ رحلة عودةٍ من هذا النوع، يبقى الشعور بالانتماء هو التحديّ الأكبر. فالذين عاشوا في جماعةٍ دينيّةٍ مغلقةٍ تعلّموا أنّ المحبّة حكرٌ على الداخل، وأنّ الخارج عدوٌّ أو ضالٌّ. لذلك يحتاجون إلى أن يكتشفوا نوعاً جديداً من المحبّة: محبّة الناس العاديين، التي لا تقوم على العقيدة بل على الإنسانيّة. هذه المحبّة هي الجسر الذي يعبرون عليه إلى العالم. فإذا شعروا بأنّهم محبوبون بلا شرط، بدأوا بتحرير أنفسهم من ماضيهم بلا خوف.

إنّ إدماج الخارجين من الجماعات في المجتمع ليس عملاً خيراً، بل واجب وطني وإنساني. لأنّ كلّ عقلٍ يُستعاد من أسر الفكر المغلق هو إضافةٌ إلى طاقة المجتمع ووعيه.

الخارجون يحملون خبراتٍ وتجاربٍ يمكن أن تُسهم في فهم آليات الاختطاف العقائدي من الداخل. فإذا أعطوا الثقة، يمكن أن يتحوّلوا إلى شهودٍ على آليات الاستلاب، وإلى حُماةٍ من تكرارها. لكنّ ذلك لن يحدث إلّا إذا شعروا أنّ المجتمع لا يخافهم ولا يستغلُّهم، بل يراهم شركاء في استعادة التوازن الأخلاقي العامّ.

الاحتواء هنا لا يعني الذوبان، بل الشراكة في الوعي. فالمجتمع الذي يحتضن الخارجين يُعلن انتصاره على الكراهية، والمجتمع الذي

الفصل العاشر: تحرير العقول المخطوفة (من الاستلاب إلى العودة الآمنة للمجتمع) ..... ١٧٩

ينبذهم يُعيد إنتاجها بأسماء جديدة. لذلك ينبغي أن تُصبح ثقافة الاحتواء جزءاً من الوعي الجمعي. أن يُقال عن الخارج: (لقد نجنا)، لا (لقد ضلّ). وأن يُقال له: (نحن معك)، لا (كنّا نُحدِّرك). هذه اللغة هي التي تفتح الأبواب في النفوس قبل أن تُفتح في الواقع.

ولأنّ العودة إلى الذات هي المرحلة الأخيرة في التحرُّر، فإنّ المجتمع مطالب بأن يُذكّر الخارج بأنّه ليس مضطراً ليُصبح نسخة جديدة من أحد، بل أن يكون نفسه كما يشاء. فالخروج من التنظيم لا ينبغي أن يُستتبع بانضمام إلى فكرٍ آخرٍ أو هويّةٍ بديلةٍ، بل أن يُعيد للفرد حقّه في أن يُعرّف ذاته بنفسه. مَنْ عاش في نظامٍ يفرض عليه كيف يعتقد وكيف يشعر، يجب أن يُتاح له أن يكتشف طريقه الخاصّ نحو الله، نحو الناس، نحو نفسه. تلك هي الحرّيّة في معناها الأصيل.

وحين ينجح المجتمع في احتضان الخارجين، فإنّه لا يُنقذهم وحدهم، بل يُنقذ نفسه أيضاً. لأنّ كلّ شخصٍ يتحرَّر من القيد هو دليلٌ على أنّ المجتمع لا يزال حيّاً. والمجتمعات التي تعرف كيف تُعيد أبنائها إليها هي المجتمعات التي لا تُهزم مهما تعدّدت التنظيمات التي تُحاول اختطاف عقولها. إنّ تحرير العقول المخطوفة ليس مشروع إنقاذٍ لفئة، بل مشروع صيانةٍ للضمير الإنساني.

وفي نهاية هذه الرحلة، يُصبح الخارج من الجماعة شاهداً على قوتين متقابلتين في الإنسان: قوّة الخوف التي تدفعه إلى الاتّباع، وقوّة الوعي التي تدفعه إلى الحرّيّة. ومن واجبنا أن نُغذي الثانية حتّى لا

يعود إلى الأولى. لأنَّ الفكر المغلق لا ينهزم إلا أمام العقل الحرّ، والعقل الحرّ لا يُولد إلا في بيئة تُحِبُّ الإنسان أكثر ممَّا تُحِبُّ الفكرة. إنَّ مَنْ يُحرِّر إنساناً من خوفه لا يُنقِذه فحسب، بل يُعيد إلى العالم توازنه المفقود. فالمجتمع الذي يتعلَّم كيف يُحِبُّ ضحاياه هو وحده القادر على ألا يُعيد إنتاج الجلّادين بأسماء جديدة.

\* \* \*

الفصل الحادي عشر:

## العقل الفقهي وصيانة المعنى

المرجعية الدينيّة كجهاز توازن معرفي



لم تكن المرجعية في أيّ مرحلة من التاريخ مجرد مؤسسة تُنتج الفتاوى، بل كانت وما تزال جهازاً معرفياً متكاملًا لحراسة الدّين وصيانة المعنى. فهي البنية التي تضمن انسجام العقل مع الإيمان، وتوفّر للمجتمع الدّينيّ ميزاناً يردُّ به كلّ انحرافٍ في الفهم أو السلوك إلى ضابطه الشرعيّ والعقليّ. إنّها ليست سلطةً بشريةً تبحث عن نفوذ، بل حصنٌ إلهيٌّ لحماية العقيدة من الاختطاف والانحراف، وسياجٌ يحول دون أن يتحوّل الوحي إلى أداةٍ في يد مدّعي الاتّصال بالغيب أو المتلاعبين بالوجدان الدّينيّ.

لقد تعلّمت الأُمَّة، عبر قرونٍ طويلةٍ من التجارب، أنّ الخطر على الدّين لا يأتي من أعدائه المعلنين بقدر ما يأتي من الذين يتحدثون باسمه بلا علمٍ أو منهجٍ أو إذنٍ من الشرع. فكم من جماعةٍ رفعت راية النصّ فابتعدت عن روحه، وكم من شخصٍ ادّعى الغيرة على الغيب فحوّله إلى وسيلةٍ لبناء سلطةٍ خفيةٍ تُخضع الناس باسم الإيمان. ومن هنا كان وجود المرجعية في الإسلام الإماميّ ضرورةً لا غنى عنها، إذ تحمي قدسيّة الغيب من مدّعي الاتّصال به، وتصون النصّ من التحريف، والعقل من الارتهان للأهواء. فهي بذلك الميزان الإلهيّ الذي يُبقي الدّين قائماً على برهانه، لا على دعاوى الناس عنه.

العقلُ الفقهيُّ الذي تُمثِّله المرجعيَّة ليس عقلاً جدليّاً يبحث عن الانتصار، بل عقلٌ تعبُّديٌّ منضبطٌ يقف على حدود الله، ويُمارس فهم النصِّ كمسؤوليَّة لا كامتياز. فالفقيه، حين يُستفتى، لا يتحدَّث عن رأيٍ شخصيٍّ أو نزعةٍ فكريَّة، بل يُعيد استحضر الدليل من منبعه. لذلك، حين نقول: إنَّ المرجعيَّة هي صيانة المعنى، فإنَّنا نعني أنَّها النظام الذي يمنع تحويل الدين إلى تجربةٍ ذاتيَّة بلا معيار، ويضمن أن يظلَّ الخطاب الدينيُّ متسقاً مع أصوله الكبرى التي أُقيمت على الوحي والعقل معاً.

وإذا نظرنا إلى تاريخ المرجعيَّة الإماميَّة، وجدناها الامتداد الطبيعيُّ لخطِّ الإمامة في وظيفتها المعرفيَّة والشرعيَّة؛ فهي استمرارٌ للحراسة على الدين بعد انقطاع حضور الإمام الظاهر، وبقاؤها يعني بقاء العقل الدينيِّ في توازنه. فكما كان الإمام معصوماً يحفظ الأمة من الخطأ في فهم الشريعة، كانت المرجعيَّة - في حدود طاقتها البشريَّة - الحارس الذي يمنع الانزلاق إلى التأويلات الفرديَّة، ويضبط العلاقة بين الغيب والواقع. ولذلك، فإنَّ الانفصال عن المرجعيَّة هو انفصالٌ عن الوعي الجمعيِّ الذي صاغته قرونٌ من الاجتهاد والفقه، ومحاولةٌ لبدء الدين من جديدٍ وفق أهواء الأشخاص وتجارهم.

إنَّ الذين يدَّعون الاتِّصال بالغيب ليسوا بالضرورة منكرين للمرجعيَّة في الظاهر، لكنَّهم في جوهر خطابهم يُلغونها عمليّاً. فهم يجعلون مصدر المعرفة الغيبيَّة قائماً على التجربة الشخصيَّة أو الرؤيا أو

الفصل الحادي عشر: العقل الفقهي وصيانة المعنى (المرجعية الدينية كجهاز توازن معرفي)..... ١٨٥

الإلهام، لا على الدليل والبرهان. وهنا يبدأ الاختطاف الحقيقي للعقيدة؛ لأنَّ كلَّ مَنْ ادَّعى امتيازاً في الاتِّصال بالغيب سيجعل من نفسه وسيطاً بين الناس والسماء، فيسلب الناس عقولهم وحرِّيَّتهم باسم الطاعة. بينما المرجعية، بعقلها الأصولي، تجعل الطريق إلى الله مفتوحاً بالعقل والإيمان معاً، لا بالوساطة ولا بالرهبة، وتُذكر أنَّ (الغيب لله وحده، يُعرف بآياته، ولا يُختصُّ به أحدٌ من خلقه إلا بوحيٍّ أو حجةٍ بيِّنة).

المرجعية، بهذا الفهم، حارسٌ للغيب من التلاعب به، لا خصمٌ له. فالغيب في وعيها منبع الإيمان ومصدر المعنى، لكنَّه لا يتحوَّل إلى سلطةٍ تُمارس على العقول. فهي تؤمن بالغيب كما آمنت به الأنبياء، إيماناً يقينياً عاقلاً متَّزناً، وتُحذِّر من تحويله إلى ذريعةٍ لتأليه الأشخاص أو تقديس الإلهام الفردي. إنَّها بذلك تُنقذ الإيمان من الانغلاق الباطني، وتحفظه في مساره المضيء بين العقل والنص.

لقد كانت المرجعية - في أوج حضورها - تُجسِّد ما يمكن تسميته بـ (العقل المؤسَّس للإيمان)، أي ذلك العقل الذي يُحيل كلَّ معرفةٍ إلى أصلها، وكلَّ تأويلٍ إلى ضابطه، وكلَّ دعوىٍ إلى دليلها. فهي ترفض أن يُختزل الدين في الرؤى والأحلام والكرامات، لأنَّ الإيمان الحقيقي ليس ما يُشاهد بالبصر، بل ما يُدرك بالبصيرة. ومن هنا، فإنَّها تُحرِّر الغيب من استغلال مدَّعي الاتِّصال به، وتُحرِّر الإنسان من عبودية الوهم. فكلُّ دعوىٍ تُلغي دور الدليل هي في جوهرها إنكارٌ غير معلنٍ للعقل الذي جعله الله حجةً باطنةً على خلقه.

ولا يقف دور المرجعية عند التنظير العقلي، بل يمتدُّ إلى الممارسة الواقعية التي تحفظ كيان المجتمع الديني من التشتت. فهي التي تُحدد اتجاه الفهم العام للشريعة، وتُبقي روح الدين حيةً في ضمائر الناس بعيداً عن الغلو والانفلات. ولولاها، لكان الدين ساحةً مفتوحةً لكلِّ متكلم باسم الغيب. والمرجعية بهذا مُحقق العدالة في ميدان المعنى، كما يُحقق القاضي العدالة في ميدان السلوك؛ فهي تُقيم العدل بين النصوص، فلا تُقدِّم نصًّا على آخر بغير وجه، ولا تُقصي العقل عن النص، ولا تجعل من الغيب نقيضاً للفهم، بل مناراً له.

ولأنَّ المرجعية نظامٌ عقلائيٌّ متكاملٌ، فهي لا تنطلق من فراغ ولا تُدار بالعاطفة. بل تعتمد على منظومة أصولية دقيقة تُنظِّم العلاقة بين الدليل والمدلول، بين الثابت والمتغيِّر، وبين المقاصد والأحكام. ومن خلال هذه المنظومة، استطاعت المرجعية عبر العصور أن تحفظ نقاء الشريعة من التأويلات الطارئة، وأن تُحصِّن المجتمع من اختراق الأفكار الباطنية التي تحاول ربط الدين بإلهام شخصيٍّ أو مكاشفةٍ غامضةٍ. وهنا تتجلَّى عبقريتها: فهي توازن بين قدسية النصِّ وواقعية الفهم، بين سموِّ الغيب ومسؤولية الإنسان.

لقد واجهت المرجعية، في عصور كثيرة، حملاتٍ فكريةً وسياسيةً حاولت أن تُقنِع الناس بأنَّ (الاجتهاد البشري) ليس إلَّا حجاباً دون النور الإلهي المباشر، وأنَّ الاتِّصال بالغيب يمكن أن يكون طريقاً أسرع وأقصر للفهم. لكنَّ المرجعية ردَّت على تلك الموجات بردِّ علميٍّ هاديٍّ

الفصل الحادي عشر: العقل الفقهي وصيانة المعنى (المرجعية الدينية كجهاز توازن معرفي)..... ١٨٧  
قائم على البرهان، مؤكدة أن الدين لا يفهم بالعواطف، ولا يستمد من الإلهام المجرد، بل من التفاعل العاقل مع النص كما أنزله الله. فكل محاولة لتجاوز المرجعية هي في حقيقتها محاولة لاختطاف الوحي من سياقه، وتحويله إلى مادة بيد الأفراد.

ولذلك، حين نتأمل وظيفة المرجعية، نكتشف أنها ليست مجرد (إدارة دينية)، بل نظام أمان فكري وإيماني صمم ليحفظ استمرارية الدين من التمزق. فهي الجهاز الذي يضبط الحركة الفكرية للأمة كما يضبط القلب دوران الدم في الجسد: صامت، لكنه أساس الحياة. إنها تحرس الدين من الخارج ضد محاولات التشويه، ومن الداخل ضد محاولات الاختطاف، وتبقى بهذا المعنى السور الأخير الذي يحمي الإيمان من التفكك والضياع.

لقد تكرر في التاريخ أن كل مجتمع ضعفت فيه المرجعية، تسلل إليه من يدعي الاتصال بالغيب ليملا الفراغ. فحين يغيب المنهج، يتقدم الادعاء؛ وحين يهمل العقل، يتضخم الغيب المشوه. لكن المرجعية كانت دائماً تعود لتذكر الناس بأن الغيب لا يدرك بادعاء الوساطة، بل بفهم الوحي والعمل به. إنها ترد الأمور إلى أصولها، وتعيد للغيب قداسته التي فقدها في خضم دعاوى.

وهكذا تظهر المرجعية في صورتها الكبرى: جهاز توازن معرفي وروحي، يحفظ العقل من الغلو، والإيمان من التشتت، والدين من الاختطاف. فهي لا تمارس وصاية على الناس، بل تمارس وصاية على

المعنى، وتذكّرهم بأنّ الطريق إلى الله مفتوحٌ لكلّ من سارَ بدليلٍ، وأنّ أعظم الانحراف أن يُغلَقَ هذا الطريق باسم الغيب.

### المرجعية في مواجهة مدّعي الاتصال بالغيب:

حين نقرأ حركة الانحرافات العقائديّة الحديثة، نكتشف أنّ معظمها لم تبدأ من رفضٍ مباشرٍ للدين، بل من التحايل على الدين باسم الغيب. إذ يظهر مَنْ يدّعي أنّه متّصلٌ بعالم علويٍّ خاصٍّ، أو أنّه حاملٌ لرسائلٍ باطنيّةٍ لا يُدرکہا الفقهاء، أو أنّه مأذونٌ بتمثيل الإمام الغائب في الأرض. في هذه اللحظة تبدأ مأساة الوعي: يتحوّل الإيمان بالغيب إلى أداةٍ للهيمنة، ويُختطفُ الدين من داخله، ويُستبدلُ عقل المرجعية بوجدان الوسيط.

هنا بالضبط ينهض دور المرجعية بوصفها الحارس الفلسفي والمعرفي والمنطقي للدين، الذي يُعيد التوازن بين الغيب والعقل، وبين التجربة الإيمانيّة والانضباط المعرفي. المرجعية، في مواجهة هذه الظواهر، لا تدخل مع مدّعي الاتصال بالغيب في صراعٍ شعاعاتيٍّ أو عاطفيٍّ؛ بل تشتبك معهم على مستوى المنهج والدليل. فهي لا تردّ عليهم بالاتهام، بل بالسؤال: ما هو برهانك؟ ما هو دليلك على أنّ ما تدّعيه وحيٌّ أو تكليفٌ شرعيٌّ أو إلهامٌ موثوقٌ؟

فحين يُسأل المدّعي، تنكشف هشاشةُ خطابه؛ إذ لا يملك إلاّ الانفعال أو التجربة الشخصية أو (الرؤيا)، بينما المرجعية تُقيم حجّتها على نصٍّ صريحٍ أو دليلٍ عقليٍّ قاطعٍ أو إجماعٍ معتبرٍ. وبهذا تُعيد

الفصل الحادي عشر: العقل الفقهي وصيانة المعنى (المرجعية الدينية كجهاز توازن معرفي)..... ١٨٩  
المرجعية العقل إلى موقعه الطبيعي شريكاً في الإيمان، لا تابعاً  
للعاطفة.

ولأن مدعي الاتصال بالغيب يعتمدون غالباً على الإيحاء النفسي،  
وعلى صناعة الهالة القدسية حول ذواتهم، تأتي المرجعية لتفكك هذا  
البناء النفسي بلغة الهدوء والعلم. فهي تُعلم الناس أن القداسة لا تُمنح  
بالادعاء، وأن الإلهام لا يُغني عن الاستدلال، وأن الطريق إلى الإمام  
لا يمرُّ عبر وسيطٍ مجهولٍ، بل عبر العمل بشرعه. بهذا المنهج تُحبط  
المرجعية آليات التلاعب، وتُفشل محاولات صناعة (الكاريزما الدينية)  
التي يعيش عليها أولئك الدجالون الصغار.

وقد أثبت التاريخ أن كل حركة غيبية بلا مرجعية عقلية تنتهي إلى  
مأساة. من ادعاءات السفارة في عصور الغيبة الصغرى، إلى حركات  
باطنية معاصرة تترين باسم الانتظار، ثم تُحوّل الانتظار إلى طاعة  
لشخص يدعي أنه الممهّد أو الواسطة أو باب المولى. وكل مرة كانت  
المرجعية تتدخل بحكمة وصرامة معاً، فتردُّ الناس إلى أصل العقيدة:  
أن الإمام الغائب لا يُعرف إلا بآثاره في الضمير والعقل، وأن كل من  
زعم وصلاً خاصاً به فقد خرج عن نظام الشرع. وهكذا تحافظ  
المرجعية على معنى الغيبة بوصفها امتحاناً للإيمان، لا سوقاً للدجالين.

إن أخطر ما يفعله مدعو الاتصال بالغيب أنهم يُلغون مبدأ  
الشهادة العقلية في الدين. فالمؤمن عندهم ليس من يفهم، بل من  
يسلم. وليس من يقتنع، بل من يخضع. بهذا تُنتج هذه الحركات عقلاً

تابعاً، مشلول الإرادة، خائفاً من السؤال، يظنُّ أنَّ التفكير في صدق القائد خيانةٌ للغيب. وهنا تتجلى القيمة التحريرية للمرجعية؛ فهي تردُّ الإيمان إلى أصله العقليِّ الواعي، وتجعل من التسليم لله تسليماً مبنياً على الدليل لا على الخوف. المرجعية لا تقتل السؤال، بل تُوصِّله؛ ولا تُنكر الغيب، بل تُطهِّره من التمثيل البشريِّ الفاسد.

من هنا نفهم أنَّ المرجعية لا تواجه الانحراف الغيبيِّ بالشجب فقط، بل تُقدِّم بديلاً معرفياً متكاملًا:

- بديلٌ يقوم على العلم بدل الإلهام.

- وعلى الفهم بدل الوجدان.

- وعلى الثقة بالعقل بدل الانقياد للشخص.

فالمرجعية لا تنافس مدَّعي الغيب في السلطة، بل تُنهي الحاجة إلى سلطتهم أصلاً، لأنَّها تُعلِّم الإنسان كيف يؤمن بنفسه، وكيف يبني صلته بربه دون وسائط. كلما ترسَّخ هذا الوعي، انكمش خطاب الادِّعاء، وتراجع سحره. إنَّ المرجعية تحمي الدين باليةً ثلاثيةً مترابطةً:

### آلية حماية المرجعية للدين:

١ - العقلُ الأصوليُّ: الذي يضع قواعد الاستدلال ويُميِّز بين

الحجَّة والظنُّ.

٢ - العقلُ الفقهيُّ: الذي يستنبط الأحكام من أدلتها الشرعية،

فلا يختطفه حربيُّ أو غنوصيُّ.

الفصل الحادي عشر: العقل الفقهي وصيانة المعنى (المرجعية الدينية كجهاز توازن معرفي)..... ١٩١

### ٣ - العقل الاجتماعي: الذي يُترجم الفقه إلى نظام حياة متوازن

يحمي المجتمع من الفوضى.

هذه العقول الثلاثة تعمل معاً كما تعمل حواس الجسد في تنسيق الحركة. فإذا غاب أحدها، اختلّ التوازن وانهار البناء. ومدعو الاتصال بالغيب يحاولون تعطيلها جميعاً، لأنّها تُهدد وجودهم القائم على الغموض والعاطفة والانبهار. ولذلك، حين تنبعث المرجعية بوعيتها المؤسسي، تُعيد الأمور إلى نصابها: فالدين ليس تجربة غيبية خاصة، بل رسالة موجّهة إلى العقل الجمعي للأمة.

وتدرك المرجعية أنّ الصراع مع مدّعي الاتصال بالغيب ليس صراعاً نصوصاً فقط، بل صراعاً وعياً وثقة أيضاً. فهؤلاء يعتمدون على فراغات المجتمع: الجهل، الفقر، الحاجة، الاضطراب النفسي، الإحباط من الواقع السياسي أو الاجتماعي. لذلك لا تكفي المرجعية بإصدار البيانات أو الفتاوى، بل تعمل على ملء الفراغ الروحي والمعرفي في حياة الناس؛ تُقيم المنبر، وتُحيي الشعيرة، وتفتح باب السؤال، وتُربي العقل منذ الصغر على محبة الدليل. إنّها بذلك تمارس (الوقاية) قبل (العلاج). فحيث يزدهر العلم، يَخْتَنق الادّعاء؛ وحيث يُفَعِّل العقل، يضمحلّ السحر.

إنّ أخطر أدوات مدّعي الاتصال بالغيب أنّهم يوهمون الناس بأنّهم أقرب إلى الله من العلماء، فيزرعون عقدة الذنب في ضمير المؤمن العادي، فيرى نفسه ناقصاً في الإيمان ما لم يخضع لهم. هنا يتجلّى الدور

الأبويُّ للمرجعيَّة؛ فهي تُعيد تعريف القرب من الله بأنَّه عملٌ صالحٌ وفهمٌ سليمٌ ونيةٌ خالصةٌ، لا رؤيا ولا مكاشفة. فالإمام المعصوم نفسه علَّم شيعته أنَّ معيار القرب هو الطاعة، لا الادِّعاء. والمرجعيَّة تستعيد هذا الدرس في كلِّ عصر، فتُبطل الخرافة بالتعليم، وتُزيل الوهم بالبرهان، وتُعيد الكرامة إلى العقل المكلف.

ولأنَّ خطاب مدَّعي الغيب يعتمد على الإبهام والتقديس الشخصيِّ، تردُّ المرجعيَّة بقداسة مؤسَّسيَّة لا شخصيَّة. فالقداسة عندها ليست صفة أفرادٍ، بل خاصيَّة علمٍ منسجمٍ مع الوحي. المرجعيَّة تُخفي الشخص لتُظهر المنهج، بينما الحركات الغيبيَّة تُخفي المنهج لتُقَدِّس الشخص. وهذا هو الفرق الجوهرِيُّ بين الدِّين والعقيدة المختطفة: الدِّين يُربِّي على المسؤوليَّة، والاختطاف يُربِّي على الانبهار.

ومن خصائص المرجعيَّة أنَّها تحاور الجميع دون أن تفقد يقينها. فهي تدخل ميدان الأفكار بثقةٍ لا بعنفٍ، وتُثبت أنَّ الحقيقة لا تحتاج إلى الصراخ. لذلك، كانت المرجعيَّة على الدوام مركز جذبٍ للعقول الباحثة، لأنَّها تُمثِّل العقل المؤمن الذي يُوفِّق بين الانفتاح والانضباط. وقد علَّمت الأجيال أنَّ الغيب لا يتناقض مع التفكير، بل يكتمل به؛ وأنَّ الإيمان الحقيقي لا يطلب الغموض، بل يُضيء به.

ومن هنا، حين تواجه المرجعيَّة خطاباً غيبياً منحرفاً، فهي لا تهاجمه فحسب، بل تُعيد تعريف الغيب نفسه: الغيب ليس ساحةً لتجاوز العقل، بل أفقٌ لتعظيمه. والغيب ليس وسيلةً للاحتكار، بل

الفصل الحادي عشر: العقل الفقهي وصيانة المعنى (المرجعية الدينية كجهاز توازن معرفي)..... ١٩٣

ميداناً للثقة بالله دون وسائط. بهذا تُعيد المرجعية الغيب إلى مكانه الشريف، وتُسقط عنه كلَّ أوهام الادّعاء.

لقد واجهت المرجعية المعاصرة تنظيماً متعدّدة حاولت تسويق فكرة (النيابة الخاصّة) أو (الإذن الغيبي) أو (الرؤيا التكليفية)، ونجحت في إفشالها من خلال صبرٍ علميٍّ ووعي اجتماعيٍّ عميق. فهي لم تُقابل الدعوى بالتجاهل، بل بالتحليل؛ ولم تكتفٍ بالتحذير، بل قدّمت للناس بديلاً معرفياً نقيّاً. فأصبحت المرجعية، في وعي المؤمنين، المصفاة الكبرى التي تُنقي الخطاب الديني من شوائب الغيب المتصنّع.

المرجعية لا تخاف من الغيب الحقّ، بل تُخيف من يدّعيه بغير حقّ. وهي لا تعادي التجربة الروحية، بل تُهدّئها وتضبطها بالشرع والعقل. فالؤمن مدعوٌّ لأن يعيش الغيب إيماناً وعملاً، لا ادّعاءً وامتنيازاً. ومن هنا فإنّ المرجعية تُعلّم أنّ (الكرامة) لا تُثبت الولاية، و(الرؤيا) لا تُقيم حجّة، و(الإلهام) لا يُغني عن النصّ. بهذه القواعد الدقيقة تُعيد المرجعية بناء الوعي الإيمانيّ على أساسٍ رصينٍ لا تهزّه الظنون.

وتُدرك المرجعية أنّ أخطر ما يواجه الدين في عصرها ليس الإلحاد الصريح، بل الإيمان المشوّه الذي يُنسب إلى الغيب زوراً. فالإلحاد الواضح يمكن مناقشته بالحجّة، أمّا الإيمان المختطف فيستر بلغة القداسة، ويحتاج إلى بصيرة تكشفه. ولهذا تقوم المرجعية بدور الطبيب الذي لا يهاجم المريض، بل يعالجه من السمّ الذي دسّه الجهل

في جسده. إنَّها تحافظ على الإيمان حيًّا نقيًّا، وتُعيد الغيب إلى مكانته كركيزة للعقل، لا كسلاح في يد الدجالين. ولأنَّ المرجعيَّة تُدرِّك عمق النفس الإنسانيَّة، فهي تعرف أنَّ الإنسان يحتاج إلى علاقةٍ وجدانيَّةٍ مع الغيب. لذلك لا تسعى إلى إلغاء التجربة الروحيَّة، بل إلى توجيهها. تقول للمؤمن: (اعرف إمامك بالغيب الذي علَّمه الله، لا بالادِّعاءات التي يُروِّجها الناس). وتُذكِّر بأنَّ الله لم يترك خلقه بلا حجَّة، ولا حجَّة بلا عقل، وأنَّ الإمام نفسه لا يُتَّبَع إلاَّ بدليلٍ واضح، لا بإيحاءٍ غامضٍ. بهذا تحفظ المرجعيَّة الانسجام بين العقل والوجدان، بين العلم والروح، فلا يُخَطَف أحدهما باسم الآخر.

إنَّ المرجعيَّة حين تحارب مدَّعي الاتصال بالغيب، لا تفعل ذلك دفاعاً عن سلطتها، بل دفاعاً عن حرِّيَّة الإنسان وكرامته. فهي تعلم أنَّ الدِّين الذي يتحوَّل إلى أداةٍ للوصاية على العقول يفقد روحه، وأنَّ الإيمان الذي يُبنى على الخوف لا يصمد أمام الشكِّ. لذلك، تزرع المرجعيَّة في الناس شجاعة السؤال، وتُربِّيهم على أنَّ الطاعة لا تعني السكوت، وأنَّ الإيمان لا يعني الانغلاق. وهكذا تُعيد تعريف العلاقة بين المكلف والعالم بأنَّها علاقةٌ ثقةٌ لا تبعيَّة، ومعرفةٌ لا انبهارٍ.

بهذه الوظيفة العظيمة، تُشكِّل المرجعيَّة درعاً معرفياً ونفسياً واجتماعياً للأُمَّة، يحفظها من السقوط في فخِّ الانبهار بالادِّعاء، أو الانجرار وراء الغموض الموهوم. فهي تُذكِّر المؤمن بأنَّ الغيب أمانة،

الفصل الحادي عشر: العقل الفقهي وصيانة المعنى (المرجعية الدينية كجهاز توازن معرفي)..... ١٩٥  
لا وسيلة للتمييز على الناس، وأن الطريق إلى الله لا يحتاج إلى وسطاء  
جُدُد، لأنَّ حُجَجَه قائمة، وأدلتُه ناطقة، وعقله شاهدٌ بين جنبيه. فَمَنْ  
أراد النجاة، فليلزم العقل والبرهان، فإنَّهما سفينة النجاة في زمن  
الادِّعاءات.

### الارتباط بالمرجعية.. الضمان الأخير لحماية الدين من الاختطاف:

إنَّ الارتباط بالمرجعية ليس ارتباطاً تنظيمياً، ولا مجرد تقليدٍ فقهيٍّ  
شكليٍّ؛ إنَّه رابطٌ معرفيٌّ وروحيٌّ بين الأمة ومصدر وعيها الدينيِّ.  
المرجعية ليست طرفاً في معادلة السلطة، بل قطب المعنى الذي يحفظ  
توازنها. فحين تضعف الصلة بها، يتقدَّم إلى الواجبة مَنْ يدَّعي الوصال  
بالغيب، ويملاً الفراغ بخطابٍ عاطفيٍّ يفتقر إلى الضبط الشرعيِّ.  
ولذلك، فإنَّ كلَّ انحرافٍ دينيٍّ جديدٍ يمكن رده إلى أصلٍ واحدٍ: انفصال  
الوعي عن المرجعية، واستبدال الدليل بالعاطفة، والمنهج بالانبهار.  
المرجعية تُمثِّل في وعي الأمة العقل الجمعيَّ المستنير بالوحي،  
وهي الامتداد الطبيعيُّ للعقل الإماميِّ الذي تميَّز عبر التاريخ بالقدرة  
على الجمع بين الإيمان والعقل. فكما أنَّ الإمام المعصوم كان الحارس  
على الدين من التحريف، كانت المرجعية في عصر الغيبة الحارس على  
منهج الفهم من الانحراف. إنَّها تُجسِّد معنى (الولاية على المعنى) لا  
(الولاية على الإنسان)، فهي لا تهيمن على النفوس، بل على المفاهيم،  
ولا تفرض الوصاية على الضمائر، بل تحمي الضمير من التلاعب به.

و حين يُسأل: ما الحاجة إلى المرجعية ما دام الإنسان يستطيع أن يقرأ القرآن ويفهمه؟

الجواب: أن النصَّ الإلهي لا ينطق بنفسه، بل يفهم في إطار من اللغة والعقل والأصول. ومن دون هذا الإطار، يتحوّل النصُّ إلى مادّة قابلة لكلِّ تفسيرٍ متخيّل، فيُصبح الإيمان مسرحاً للأهواء. المرجعية هي التي تمنح النصَّ سياقه، وتربط بين الكلمة الإلهية والعقل الإنسانيّ ضمن منظومةٍ متوازنة تحفظ روح الدّين. فهي الوسيط بين المعنى والواقع، لا بين الله والإنسان. ومن هنا كانت ضرورتها عقليةً وشرعيةً في آنٍ واحدٍ.

ولأنّ المرجعية بهذا الموقع تُعيد للعقل سلطته الشرعية، فهي العدوُّ الطبيعيُّ لكلِّ دعوىٍ اختطافٍ دينيٍّ تقوم على الإبهار أو الغموض أو التجربة الشخصية. فمدّعو الاتصال بالغيب يعيشون على فكرة أن الإيمان الحقيقيّ سرٌّ لا يُدرك إلاّ عبرهم، وأنّ النجاة مشروطةٌ بالخضوع لهم. أمّا المرجعية، فترى أنّ النجاة رهينةُ الدليل والعمل، وأنّ الله لم يجعل بينه وبين عباده حجاباً من البشر بعد النبيّ والأئمة عليهم السلام. لذلك فهي تُحرّر الدّين من الوسائط، وتُعيد للإنسان كرامته الفكرية والإيمانية معاً.

إنّ أهمّ ما يميّز الارتباط بالمرجعية أنّه اختياريٌّ قائمٌ على المعرفة والثقة. فالؤمن يختار مرجعه بعد بحثٍ واطمئنانٍ، لا بتوريثٍ ولا بإكراهٍ. وهذا الاختيار الواعي هو ما يجعل العلاقة بين المكلف والمرجع

الفصل الحادي عشر: العقل الفقهي وصيانة المعنى (المرجعية الدينية كجهاز توازن معرفي)..... ١٩٧

علاقة عقل برهان، لا علاقة خوفٍ بسلطة. ففي فقه أهل البيت عليهم السلام، (التقليد) ليس خضوعاً أعمى، بل هو عقد ثقةٍ معرفيٍّ يقوم على أنَّ العامِّي يرجع إلى الأَعلم، كما يرجع المريض إلى الطبيب، لا عبوديةً له بل طلباً للسلامة. وبذلك يُصِحُّ الارتباط بالمرجعية ممارسةً عقلانيةً للحرية، لأنَّها تجعل الإنسان مسؤولاً عن اختياره وموقفه.

ومن هنا، فإنَّ المرجعية تُربي المؤمن على أن يسأل قبل أن يتبع، وأن يفكر قبل أن يُسلم، وأن يجعل العقل شاهداً على الإيمان لا خصماً له. في هذا المناخ تزدهر الحرية المنضبطة التي تُميِّز مدرسة أهل البيت عليهم السلام: حرية السؤال ضمن حدود الدليل، وحرية الاختلاف ضمن وحدة المنهج. وكلما قويت هذه الحرية الملتزمة، ضاق المجال أمام المدَّعين الذين يبنون سلطتهم على تغييب السؤال. فالعقل الذي تربيته المرجعية لا يُخدع بسهولةٍ بشعارات الغيب المصطنعة، لأنَّه يعرف أنَّ الغيب لا يُرى في الأشخاص بل في الحقِّ.

وفي التاريخ القريب، أثبتت المرجعية قدرتها على حماية المجتمعات من التفكُّك العقائدي والفكري. فقد واجهت تياراتٍ غيبيةً عديدةً حاولت اختطاف الوعي باسم المهدي المنتظر، فواجهتها بمنطقٍ رصينٍ يجمع بين النصِّ والعقل والتاريخ، موضحةً أنَّ الإيمان بالإمام لا يعني تصديق كلِّ من ادَّعى الوصال به. ومن خلال بياناتها وفتاواها وندواتها العلمية، كشفت المرجعية عن الأساليب التي يستخدمها مدَّعو الاتصال بالغيب في خداع أتباعهم، من استغلال

العاطفة الدنيوية إلى الابتزاز المالي والنفسي، مؤكدةً أن أول شرط للإيمان الصحيح هو المعرفة، لا الاندفاع. وهكذا حمت المرجعية المجتمع من أن يتحوّل الدين إلى تجارةٍ بالمشاعر.

وقد تبين في تجارب كثيرة أن الجماعات التي تنفصل عن المرجعية تفقد تدريجياً قدرتها على التوازن. تبدأ بالبحث عن الحقيقة، وتنتهي إلى تقديس الزعيم. تبدأ بالحديث عن الغيب، وتنتهي إلى صراعٍ دنيويٍّ على النفوذ. المرجعية، في المقابل، تبقى الضامن لبقاء الدين فوق الأشخاص، لأنها تُربيّ الناس على فكرة أن العالم وسيلةٌ لا غاية، وأنّ القداسة للنصّ لا للبشر، وأنّ المرجعية نفسها قابلةٌ للنقد العلمي ضمن إطارٍ من الاحترام والتقوى. بهذا تحفظ المرجعية ذاتها من التحوّل إلى سلطةٍ مغلقة، وتبقى نظاماً حياً لتجديد الفهم وصيانة الإيمان.

ولأنّ المرجعية تُدرك أنّ الانحرافات لا تنشأ من فراغ، فهي تعمل على معالجة جذورها الاجتماعية والنفسيّة. فهي تعرف أنّ مدّعي الاتصال بالغيب يستغلّون الحرمان العاطفيّ والفراغ الروحيّ لدى بعض الأفراد، فيقدّمون أنفسهم كأباءٍ روحيين أو مخلصين. ومن هنا تأتي عناية المرجعية ببناء الوعي التربويّ والعاطفيّ للمجتمع: تُشجّع على حضور المجالس، وترسيخ الثقافة الحسينية، وتعليم القرآن، وبثّ روح المسؤولية الأخلاقية، حتّى لا يظلل الإنسان فريسةً للوهم أو اليأس. فالمرجعية لا تكتفي بالتحذير من الانحراف، بل تُعيد بناء المناعة الداخليّة للمجتمع.

الفصل الحادي عشر: العقل الفقهي وصيانة المعنى (المرجعية الدينية كجهاز توازن معرفي)..... ١٩٩

إنَّ قوَّةَ المرجعيَّةِ لا تكمن في سطوتها، بل في ثقة الناس بعلمها وورعها. هذه الثقة ليست منحةً اجتماعيَّةً، بل ثمرة قرونٍ من التجارب التي أثبتت أنَّ المرجعيَّةَ هي الأقدر على حفظ الدين من الاختطاف. فكلِّما حاولت موجةٌ غيبيَّةٌ أن تقتحم الوعي الشيعيِّ، كان العلماء يقفون صفًّا واحداً لبيان الحقائق بالأدلة والوثائق. ومن خلال هذا السلوك الجماعيِّ، تشكَّل في الوجدان الشيعيِّ مبدأ الوعي بالمرجعيَّة، أي إدراك أنَّ الرجوع إليها هو رجوعٌ إلى العقل الجمعيِّ الموحد، لا إلى شخصٍ منفصلٍ عن الأُمَّة.

وقد طوَّرت المرجعيَّة عبر الزمن أدواتها في المواجهة، فجمعت بين الخطاب الفقهيِّ والتحليل الاجتماعيِّ. فهي حين تُصدر فتوىً ضدَّ تنظيمٍ منحرفٍ أو فكرةٍ غيبيَّةٍ، لا تفعل ذلك بدافع الخوف من المنافسة، بل انطلاقاً من إدراكها العميق بأنَّ هذه الأفكار تُهدِّد البناء العقديَّ للأُمَّة. ولذلك، فإنَّ كلَّ بيانٍ يصدر عن المرجعيَّة هو بيانٌ في علم النفس الاجتماعيِّ بقدر ما هو فتوىٌ شرعيَّة؛ إذ يُوجِّه العقول ويُحرِّر النفوس من سلطة الادِّعاء. إنَّها مدرسةٌ في التربية قبل أن تكون مدرسةً في الفقه.

وحين نظر إلى أثر المرجعيَّة في المجتمعات الإسلاميَّة، نجد أنَّها كانت دائماً جدار الحماية الأخير. فحين تسقط الأنظمة، وتضطرب الأوضاع، تبقى المرجعيَّة مرجعاً للأمان المعنويِّ. الناس يهرعون إليها طلباً للفتوى، كما يهرعون إلى ضوءٍ ثابتٍ وسط العاصفة. وهذا الثبات

ليس صدفة، بل نتيجة منظومة فكرية متينة تجعلها قادرة على التعامل مع الأزمات بوعي روحي وعقلي متكامل. فهي تعرف أن الانحراف العقائدي غالباً ما يبدأ من الاضطراب النفسي أو الاجتماعي، لذلك تعالج المرض من جذوره لا من أعراضه.

الارتباط بالمرجعية إذاً ليس عبئاً على الحرية، بل شرطٌ تحققها. فمن دون ضابطٍ معرفيٍّ، تتحوّل الحرية إلى فوضى، ومن دون منهجٍ فقهيٍّ، يتحوّل الإيمان إلى عاطفةٍ متناقضةٍ. المرجعية تُعطي الإنسان القدرة على أن يكون حرّاً ضمن حدود الحقيقة، فتُجنّبهُ الوقوع في عبودية الوهم. وكلّما ازداد الوعي بهذا الارتباط، تضاءلت فُرص اختطاف الدين من قِبَل مَنْ يحاولون جعله وسيلةً للمصالح أو السلطة أو الادّعاء.

وفي الوعي الشيعيِّ الراشد، المرجعية هي الحصن الأخير الذي تلجأ إليه الأمة حين تُهددها الفتن. فهي التي تُفرّق بين صوت الدليل وصوت الادّعاء، بين وعود الغيب المزيفة ووعده الله الحقّ، بين انتظارٍ يُجرّك الإنسان نحو الإصلاح، وانتظارٍ يُحدّره بالوهم. وكلّما علا صوت مدّعي الاتصال بالغيب، ازداد الناس تمسكاً بالمرجعية، لأنّها تُمثّل ضمير الدين الجمعيّ الذي لا يُباع ولا يُشترى.

بهذا الوعي تنغرس المرجعية في ضمير الأمة لا كمؤسسة فوقية، بل كقيمة إيمانية متجدّدة. فهي الفهم الحيّ للإسلام، والامتداد العمليّ لوصايا الأئمة عليهم السلام في الرجوع إلى الفقهاء الأئمة على الدين. ولو

الفصل الحادي عشر: العقل الفقهي وصيانة المعنى<sup>١</sup> (المرجعية الدينية كجهاز توازن معرفي)..... ٢٠١

تأملنا سيرة الأئمة عليهم السلام لوجدنا أنهم مهّدوا لهذا النظام بوضوح؛ إذ قال الإمام العسكري عليه السلام: «فَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنَ الْفُقَهَاءِ صَائِنًا لِنَفْسِهِ، حَافِظًا لِدِينِهِ، مُحَالَفًا لِهَوَاهُ، مُطِيعًا لِأَمْرِ مَوْلَاهُ فَلِلْعَوَامِّ أَنْ يُقَلِّدُوهُ»<sup>(١)</sup>. هذه الكلمة هي أصل المرجعية. إنها ليست قراراً بشرياً، بل امتداداً شرعياً لعقل الإمامة في زمن الغيبة، ومظهر من مظاهر العناية الإلهية المستمرة بالأئمة. ومن ثمّ فإنّ كلّ انقطاع عن المرجعية هو انقطاع عن هذا الامتداد، وعن ضمانة البقاء في خطّ الوحي.

إنّ أخطر ما في الانحرافات الحديثة أنّها تُشبه الحقّ وهي باطل؛ تتزيّن باسم الإمام، وتتكلّم بلغة الدعاء، لكنّها تنقض روح الطاعة للإمام الحجّة عبر تجاوز وكلائه الحقيقيين، أي الفقهاء العدول. ومن هنا يفهم أنّ الدفاع عن المرجعية ليس دفاعاً عن أشخاص أو مناصب، بل عن الدّين نفسه في جوهره. المرجعية هي المصفاة التي تُنقي الإيمان من الغلوّ والاختطاف، وتعيد كلّ فكرٍ إلى ميزان البرهان. ومن دونها، يتحوّل الدّين إلى تجربة فردية قابلة للتلاعب، ويصبح الغيب مطيّة لكلّ طامع في النفوذ أو الشهرة.

لهذا، فإنّ الحفاظ على المرجعية ليس شأنًا فقهيًا فحسب، بل واجبٌ حضاريٌّ وأخلاقيٌّ. فهي التي تحفظ للأئمة اتزانها وسط العواصف، وتمنحها القدرة على تمييز الصادق من الدعيّ. وكلّ محاولة لتهميشها أو الالتفاف عليها هي، في حقيقتها، مشروعٌ لاختطاف

(١) تفسير الإمام العسكري عليه السلام (ص ٣٠٠/ ح ١٤٣).

الدين من جذوره. إنَّها آخر القلاع التي تقف في وجه التبديد العقائدي، وآخر الصوت الذي يُذكَرُ الناس بأنَّ الطريق إلى الله لا يُفْتَحُ بادِّعاء، بل يُعَبَّدُ بالعقل والإيمان والعمل الصالح.

إنَّ المرجعيَّةَ بهذا المعنى ليست ماضياً يُستعاد، بل حاضرًا يُجسَّد. فكلُّ عصرٍ يحتاج إلى فقيهه، وكلُّ مجتمع بحاجةٍ إلى مَنْ يضبط فكره كما يضبط ضميره. ومن دونها، يُخْتَزَلُ الدين في العواطف، وتُخْتَطَفُ العقيدة في شعاراتٍ برّاقةٍ. أمَّا بها، فيبقى الدين عميقاً، متوازناً، منفتحاً، يحمل الغيب في صفائه، لا في ادِّعائه.

وهكذا يُجْتَمَعُ معنى هذا الفصل: أنَّ المرجعيَّةَ الدينيَّةَ هي جهاز التوازن المعرفي والروحي للأُمَّة؛ تحفظ النصَّ من التحريف، والعقل من الاضطراب، والغيب من الاختطاف. وهي التي تُعيد كلَّ فكرةٍ إلى أصلها، وكلَّ انفعالٍ إلى برهانه، وكلَّ دعوىٍ إلى محكمها. فحيثما وُجِدَتِ المرجعيَّةُ، وُجِدَ الدين في صفائه، وحيثما غابت، تسلَّلَ مدَّعو الاتِّصال بالغيب ليستولوا على عقول الناس.

ومن هنا كان التمسُّكُ بها ركناً من أركان الوعي الإيماني، وعنواناً للثقة بالعقل والوحي معاً. فهي الحصن الذي يحمي الدين من الإنسان، ويحمي الإنسان من نفسه، ويجعل الإيمان بالغيب سبيلاً إلى الله، لا سُلماً إلى أحدٍ سواه.

الفصل الثاني عشر:

مركز الدراسات التخصصية في  
الإمام المهدي عليه السلام في النجف الأشرف  
البناء العلمي للمعرفة المهدوية وضبط المفهوم



## تمهيد:

يُشكّل مركز الدراسات التخصّصية في الإمام المهدي عليه السلام في النجف الأشرف نموذجاً مؤسسياً متقدماً في الحقل البحثي الإسلامي، إذ نجح في تحويل الدراسات المهدوية من فضاء الوعظ والتلقّي الانطباعي إلى مجالٍ علميٍّ منظمٍ يقوم على التحقيق والتحليل والرصد. وقد جاءت نشأته استجابةً لحاجةٍ معرفيةٍ واضحةٍ تمثّلت في غياب الإطار المؤسسي القادر على تحليل الظواهر المهدوية ومتابعة تطوّراتها الفكرية والاجتماعية ضمن المنظومة الإسلامية. فالمهدوية، بوصفها حقلاً مركباً يتداخل فيه النصّ الديني، والتاريخ، والتأويل، والوجدان الجمعي، تحتاج إلى أدواتٍ بحثيةٍ منضبطة قادرة على تمييز الإيمان الأصيل من الانحراف العقائدي، والقراءة العلمية من التوظيف الدعائي.

من هذا المنطلق، تأسّس المركز كمنظومةٍ علميةٍ متخصصةٍ تمتلك رؤيةً بحثيةً دقيقةً، ومناهجَ واضحةً للتحقّق من النصوص وتحليل الظواهر المهدوية في بعدها الاجتماعي والفكري. ولا يخضع هذا المركز لأيّ تبعيةٍ إداريةٍ لجهةٍ دينيةٍ أو سياسيةٍ، بل يعمل وفق استقلالٍ مؤسسيٍّ يتيح له مرونةً في البحث والتحقيق، مع انسجامٍ منهجيٍّ مع

المدرسة العلميّة في النجف الأشرف التي تُمثّل المرجعيّة العقليّة للاجتهاد الإسلامي في دراسة القضايا الدينيّة.

هذا التوازن بين الاستقلال المؤسسي والإسناد العلمي منح المركز خصوصيّة في المشهد الفكري، إذ يجمع بين دقّة المنهج الحوزوي وانفتاح التحليل الأكاديمي، فصار نقطة التقاء بين الباحثين المتخصّصين في التراث الإسلامي والدارسين في مجالات الفكر الديني والاجتماع العقائدي.

### الحاجة إلى مؤسسة تحليليّة متخصصة:

قبل تأسيس المركز، كانت الدراسات المهدويّة تتوزّع بين محورين رئيسيين:

الأوّل: المحور الروائي التقليدي الذي اكتفى بجمع النصوص من مصادرها وإعادة سردها دون معالجة نقدية أو تحليل علمي للسياق.

إلا ما ندر من بعض الكتابات الرائدة لأعلام الحوزة العلميّة في النجف الأشرف حيث لم يقتصر على الجمع الروائي وإنما قاموا بدراسة المتن المهدوي مضافاً إلى الدراسة السندية، وتوسّعوا في الطرح التحليلي النافع.

والثاني: المحور الدعوي الذي ركّز على الجانب العاطفي التحفيزي، فغابت عنه أدوات التوثيق والمقارنة والتأويل المنهجي.

كلا المسارين كان يُنتج معرفةً جزئيةً محدودةً، ولا يُجيب عن

الفصل الثاني عشر: مركز الدراسات التخصصية في الإمام المهدي عليه السلام (البناء العلمي...) ..... ٢٠٧

الأسئلة الكبرى المتعلقة بتطور المفهوم المهدوي في الفكر الإسلامي، أو بآليات توظيفه في الخطاب الديني والاجتماعي المعاصر. أمام هذا الفراغ، برزت الحاجة إلى مركز يمتلك بنية علمية متكاملة تُزاج بين التحقيق النصي والدراسة التحليلية، وتتعامل مع المهدوية كمجال معرفي يتطلب أدوات بحث متعددة التخصصات.

ومن هنا صيغت أهداف المركز على نحوٍ دقيقٍ يقوم على ثلاثة محاور أساسية:

١ - الرصد العلمي للحركات والانحرافات المهدوية من خلال تتبع خطابها ومقارنتها بالمصادر الموثوقة، وتقديم تحليلات موضوعية لسياقاتها الفكرية والاجتماعية في الإطار الإسلامي العام.

٢ - تحليل النصوص والروايات المهدوية وفق مناهج التحقيق العلمي، بما يتيح تمييز الصحيح من الضعيف، وضبط دلالات النصوص ضمن سياقها اللغوي والتاريخي.

٣ - تطوير الدراسات النظرية حول مفاهيم الانتظار والتمهيد والعدل الإلهي في ضوء علم الأصول والمنطق ومناهج الفهم النصي، بما يُعيد التوازن بين البعد الإيماني والبعد العقلائي في النظر المهدوي.

بهذا البناء، تحوّل المركز إلى مرجع مؤسسي للمعرفة المهدوية، يُقدّم أدوات تحليل علمية للباحثين، ويُسهّم في تنظيم الخطاب الديني حول الإمام المهدي عليه السلام بعيداً عن الانفعال أو التوظيف السياسي أو الرمزية غير المنضبطة.

### المنهج العلمي في إنتاج المعرفة المهدوية:

يستند عمل المركز إلى منهجٍ علميٍّ متكاملٍ يقوم على التداخل بين أربعة مستويات رئيسية من التحليل:

#### ١ - التحقيق النصي الحديثي:

يعتمد هذا المستوى على مناهج علم الرجال والدراية في التحقق من أسانيد الروايات المهدوية، مع مراعاة سياقات النقل وأسباب الورود، واستبعاد الروايات الشاذة أو المتعارضة مع المحكمات القرآنية والعقلية. هذا العمل لا يهدف إلى التشكيك في الموروث الروائي، بل إلى تصحيح بنيته المعرفية وضبط علاقته بالواقع الإسلامي العام.

#### ٢ - التحليل الدلالي واللغوي:

تُحلَّل النصوص المهدوية باعتبارها خطابات لغوية تحمل دلالات رمزية متعددة، ويُقرأ النصُّ في ضوء سياقه الثقافي والتاريخي. بهذا المنهج تمكَّن المركز من تفكيك المفاهيم التي استُخدمت في بعض الخطابات المنحرفة - مثل (النيابة الخاصة) و(الاتصال بالغيب) - وردّها إلى أصولها العلمية في المصادر المعتمدة.

#### ٣ - التحليل التاريخي والاجتماعي:

تتم دراسة تطوُّر المفهوم المهدوي ضمن السياق التاريخي والحضاري للفكر الإسلامي، مع توثيق المراحل التي شهدت انحرافاً أو استغلالاً للفكرة، وإبراز كيفية تشكُّل الوعي الجمعي المهدوي وتحولاته في ضوء المتغيّرات الفكرية والسياسية.

الفصل الثاني عشر: مركز الدراسات التخصصية في الإمام المهدي (البناء العلمي...) ..... ٢٠٩

#### ٤ - التحليل النظري العقلي والمنطقي:

يعتمد المركز مقارنةً أصوليةً في التعامل مع المفاهيم الكبرى - كالغيبية، والانتظار، والتمهيد، والحجة، والعدل الإلهي - من خلال تحليل البنية المفهومية لهذه المصطلحات وربطها بمنظومة الفكر الإسلامي الكلي. هذه المقاربة تمنع الفصل بين المهدوية والعقلانية الدينية، وتعيد تعريفها كمجالٍ يخضع للبرهان والاستدلال، لا للتجربة الفردية أو التأويل الذاتي.

إلى جانب ذلك، يُطبَّق المركز مبدأً المراجعة العلمية المزدوجة في كلِّ دراسة؛ أي مراجعة الباحثين المتخصصين بعضهم لأعمال بعض قبل اعتماد أيِّ بحثٍ للنشر أو التداول، لضمان دقَّة النتائج وموضوعية الاستنتاجات.

#### الوظائف العلمية والبحثية:

يقوم المركز بعدة وظائف علمية تتكامل في خدمة الهدف العامّ المتمثّل في صيانة المفهوم المهدوي ضمن المنظومة الإسلامية من التشويه والانحراف، من أبرزها:

#### ١ - التحقيق والنشر العلمي:

جمع المخطوطات والوثائق ذات الصلة بالروايات المهدوية وتحقيقها وفق الأصول العلمية الحديثة للتحقيق النصّي، مع مقارنة النسخ وتوثيق الفروق وإعداد شروحٍ دقيقة تُسهم في بناء قاعدة بياناتٍ موثوقةٍ للباحثين.

## ٢ - رصد الظواهر الفكرية والاجتماعية:

إنشاء وحدة متخصصة لرصد الحركات والمقولات التي تتناول القضية المهدوية في الفضاء الإسلامي العام، وتحليل اتجاهات تلقيها في الخطاب الديني والثقافي والإعلامي، مع تقديم تقارير تحليلية دورية.

## ٣ - تحليل الانحرافات الفكرية:

يتعامل المركز مع الانحراف الفكري بوصفه خللاً معرفياً في بنية الفهم، لا مجرد انحراف سلوكي أو تنظيمي. لذلك يمتد عمله من النقد إلى تفكيك الجذور المفهومية للانحراف في النصوص والمقولات الشائعة، ثم إعادة تفسيرها في ضوء القواعد الأصولية والعقلية.

## ٤ - التأهيل العلمي والبحثي:

يوفر المركز برامج تدريب أكاديمية للباحثين في الدراسات المهدوية، تُركّز على مهارات التحقيق والمقارنة والتحليل النقدي، وتعريفهم بمناهج علم الرجال والتاريخ وتحليل النصوص.

## ٥ - التعاون العلمي والمؤتمرات:

يرتبط المركز بشبكة تعاون مع جامعات ومراكز أبحاث إسلامية، ويشترك في المؤتمرات والندوات المتخصصة التي تتناول الفكر المهدوي وقضايا الغيبة والانتظار، بهدف تطوير الخطاب العلمي وتبادل الخبرات الأكاديمية.

## ٦ - الرصد الإعلامي للخطاب المهدوي:

يتابع المركز اتجاهات الإعلام الديني والرقمي المتعلقة بالمهدوية،

الفصل الثاني عشر: مركز الدراسات التخصصية في الإمام المهدي (البناء العلمي...) ..... ٢١١

ويرصد آليات تداول المفاهيم المهدوية في وسائل التواصل الاجتماعي، ويُقدّم دراساتٍ تحليليةً لتقويم الخطاب وتصحيح المفاهيم الخاطئة بأسلوبٍ علمي موضوعي.

في سياق العمل العلمي للمركز، لم يكن هدفه مجرد الردّ على الانحرافات أو محاصرة الظواهر المنحرفة، بل بناء رؤية معرفية تُحصّن الوعي من الداخل وتعيد التوازن بين العقل والنص، بين الغيب والتكليف، بحيث يكون الإيمان بالغيب عنصراً من عناصر البناء العقلي لا موضعاً للتساؤل أو الشكّ.

إنّ الغيب في المنهج الإسلامي ليس مجهولاً يبعث على الحيرة، بل هو ميدان الإيمان الذي يربط الإنسان بعالم العدل الإلهي المستور عن الأبصار. ومن هذا الفهم ينطلق المركز، فيجعل الإيمان بالغيب قاعدةً منهجيةً لكلّ دراسةٍ أو تحليلٍ، لا يتجاوزها الباحث بل يستضيء بها في كلّ استنتاج.

وإذا كانت بعض الخطابات قد استغلّت مفاهيم الغيب أو الانتظار أو النيابة لإقامة دعاوى باطنة، فإنّ المركز لا يعالج ذلك بنفي الغيب، بل بتصحيح الفهم له. فالإشكال ليس في الإيمان بالغيب، بل في القراءة المغلوطة التي تفصل الغيب عن التكليف، وتجعل منه مبرراً لتعطيل المسؤولية الشرعية والعقلية. من هنا، يتناول المركز تلك الظواهر على أساس إعادة المفاهيم إلى مواضعها الأصلية في النصوص، وتحريرها من الاستعمالات التي تقطعها عن روحها القرآنية والروائية.

فالغيب، كما ورد في القرآن الكريم، هو ميدان تصديق المؤمنين، لا حجابهم عن الفهم؛ ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ (البقرة: ٣)، ليسوا منقطعين عن العالم، بل أكثر الناس وعياً بعلاقته بالله وبمستقبل العدل الإلهي في الأرض.

لقد أرسى المركز نهجاً علمياً في التعامل مع السرديات المنحرفة من داخل بنية المعرفة، فيقوم بتحليل الخطاب الذي يستعمل العناوين المهدوية توظيفاً خاطئاً، فيكشف مواضع الخلل في الاستدلال دون المساس بأصل الإيمان. فحين يدّعي أحدٌ أن له اتّصلاً خاصاً بالإمام، لا يردُّ المركز الفكرة على نحوٍ وجداني أو سياسي، بل يُبين أن سنّة الغيبة تعني غياب التعيين لا غياب الرعاية، وأن الارتباط بالإمام إنّما يكون بالاتباع الواعي للحق والعمل بالعدل، لا بادّعاء الوساطة أو النيابة. وبهذا يضع المركز حدوداً علمية دقيقة تحفظ للمهدوية مكانتها العالية دون أن تفتح باب الغلو أو الادّعاء.

كما يسعى المركز إلى دراسة الظواهر المهدوية في بعدها الإنساني والاجتماعي، فيبحث في أسباب انجذاب بعض الأفراد إلى الخطابات السريّة التي تدّعي الانتساب للإمام، ويحلّلها من حيث الحاجة النفسيّة للالتئام، أو الفراغ المعرفي الذي يملأه الوهم. غير أنّه لا يتعامل مع هذه الحالات بلغة الاتّهام، بل بلغة التوعية والإرشاد، فيُظهر للناس أنّ الإيمان الصحيح بالغيب يُحرّر الإنسان من الخوف والاضطراب، وأن معرفة الإمام الحقيقي لا تُنال بادّعاء الرؤى، بل بصفاء السلوك

الفصل الثاني عشر: مركز الدراسات التخصصية في الإمام المهدي عليه السلام (البناء العلمي...) ..... ٢١٣  
واستقامة العقل. هذه المعالجة المتأنيبة جعلت المركز مرجعاً في الخطاب  
المتزن الذي لا يُضعف العقيدة ولا يتركها فريسةً للدعايات.  
ومن أهم ما يُميّز المدرسة العلمية التي يتبنّاها المركز أنّها تُخضع  
المفاهيم المهدوية للدرس العقلي من دون أن تُفرغها من محتواها  
الإيماني. فالعقل عندهم ليس بديلاً عن الإيمان، بل أداة لفهمه، كما قال  
أمير المؤمنين عليه السلام: «مَا عُبِدَ اللَّهُ بِشَيْءٍ أَفْضَلَ مِنَ الْعَقْلِ»<sup>(١)</sup>. ومن هذا  
المنطلق، يكون التحليل العقلي للغيب جزءاً من العبادة، لأنّه يُطهّر  
الفهم من شوائب الوهم ويعيد المفهوم إلى نقائه الأوّل. وهكذا يجمع  
المركز بين التحليل الأصولي الذي يضبط المعنى، والإيمان الذي يمنح  
المعنى روحه.

ومما يُحسب للمركز أنّه أعاد تنظيم المفاهيم الكبرى في الفكر  
المهدوي، فحرّر مفهوم الغيبة من التوظيف المنغلق، وبيّن أنّها ليست  
انقطاعاً عن الأمة بل امتحاناً لإيمانها. وحرّر مفهوم الانتظار من  
التفسير السلبي، فأصبح الانتظار في أدبيّاته حالة من البناء والإصلاح  
المستمرّ. كما أعاد تعريف التمهيد باعتباره مسؤوليّة معرفيّة وأخلاقيّة  
لا شعاراً أو موقعاً خاصاً. وبذلك صاغ خطاباً مهدوياً متكاملًا يحفظ  
للمفاهيم أصالتها ويُبقيها قادرةً على بناء الوعي.

لقد أدّى المركز دوراً جوهرياً في صيانة المفاهيم المهدوية من  
الاختلاط، فأقام ضوابط علميّة دقيقة في تفسير الروايات والآثار،

---

(١) الكافي (ج ١ / ص ١٨ / كتاب العقل والجهل / ح ١٢).

وأعاد الربط بين المعنى الروائي والمعنى القرآني ضمن منهج متكامل لا يفصل بين اللغة والعقيدة. إنَّ هذا المنهج منح الدراسات المهدويَّة موقعها الطبيعي ضمن علم الكلام التطبيقي، فصارت تُدرَّس كعلم له موضوعه ومنهجه وأدلَّته، لا كمجرد رواياتٍ جزئيةٍ أو مواعظ. وبهذا المعنى يمكن القول: إنَّ المركز قد نقل المهدويَّة من مستوى النقل إلى مستوى الدرس، ومن نطاق الحكاية إلى نطاق النظر والاستدلال.

ولأنَّ المعرفة الدنيويَّة لا تنفصل عن المصلحة العامَّة للأُمَّة، جعل المركز من أولويَّاته متابعة الظواهر الفكريَّة والتنظيميَّة التي تتَّصل بالقضيَّة المهدويَّة. فهو يرصد الحركات التي تُقحم المهدويَّة في مشاريع دنيويَّة، ويُقوم خطابها من منظورٍ علميٍّ لا سياسيٍّ، فيحفظ للفكرة قدسيَّتها من دون أن يتركها بلا حماية. هذه الرقابة العلميَّة ليست وصايةً على العقول، بل حراسةً للمنهج من الانحراف. فالخطر لا يكمن في الإيمان بالمهدي عليه السلام، بل في تحريف صورته الفكريَّة وإقحامها في صراعاتٍ لا علاقة لها برسالة الغيبة ولا بعدالتها المنتظرة.

ولا يقتصر عمل المركز على التقويم والنقد، بل يتعدَّاه إلى بناء وعيٍ بديلٍ إيجابيٍّ يُقدِّم المهدويَّة في صورتها القرآنيَّة المتكاملة: وعدٌ بالعدل الإلهي، ومنظومةٌ تربويَّةٌ تُعلِّم الإنسان أن يكون شريكاً في الإصلاح. فالمنتظر الحقيقي في أدبيَّات المركز هو مَنْ يشارك في ترسيخ القيم التي يُمثِّلها الإمام، لا مَنْ يكتفي بالتمني. ومن هنا فإنَّ الإيمان بالغيب لا يعني تعطيل العقل، بل توجيهه نحو العمل الذي يليق بالمنتظرين.

الفصل الثاني عشر: مركز الدراسات التخصصية في الإمام المهدي (البناء العلمي...) ..... ٢١٥

وفي ختام الرؤية التحليلية، يُمكن القول: إنَّ مركز الدراسات التخصصية في الإمام المهدي (عليه السلام) في النجف الأشرف قد أعاد تنظيم العلاقة بين النصّ والعقل والغيب ضمن بناءٍ معرفيٍّ متكاملٍ. فهو لم يفصل الغيب عن العلم، ولم يختزل العلم في ظاهرٍ ماديٍّ، بل جمع بينهما في منظومةٍ واحدةٍ تقوم على التحقيق والدليل والإيمان. وبذلك تحققت الغاية التي من أجلها أنشئ هذا المركز: أن تكون المهدوية علماً قائماً على البرهان، وإيماناً متصلاً بالغيب، ومنهجاً يحمي الأمة من الانحراف في فهم أعظم وعدٍ إلهيٍّ في تاريخ الإنسانية. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

\* \* \*



## المصادر والمراجع

- ١ - القرآن الكريم.
- ٢ - تُحْفُ العقول عن آل الرسول: ابن شعبة الحرّاني / تصحيح وتعليق: عليّ أكبر الغفاري / ط ٢ / ١٤٠٤هـ / مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين بقمّ المشرفّة.
- ٣ - تفسير الإمام العسكري ع: المنسوب إلى الإمام العسكري ع / ط ١ محقّقة / ١٤٠٩هـ / مدرسة الإمام المهدي ع / قمّ.
- ٤ - الغيبة: ابن أبي زينب النعماني / تحقيق: فارس حسّون كريم / ط ١ / ١٤٢٢هـ / أنوار الهدى.
- ٥ - الكافي: الشيخ الكليني / تحقيق: عليّ أكبر الغفاري / ط ٥ / ١٣٦٣ش / مطبعة حيدري / دار الكُتب الإسلاميّة / طهران.
- ٦ - كمال الدّين وتمام النعمة: الشيخ الصدوق / تصحيح وتعليق: عليّ أكبر الغفاري / ١٤٠٥هـ / مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين بقمّ المشرفّة.
- ٧ - كنز الفوائد: أبو الفتح محمّد بن عليّ الكراجكي / ط ٢ / ١٣٦٩ش / مكتبة المصطفوي / قمّ.

٢١٨ ..... سُراقُ الانتظار

٨ - نهج البلاغة: خُطَبَ أمير المؤمنين ﷺ / ما اختاره وجمعه:  
الشريف الرضي / تحقيق: الدكتور صبحي صالح / ط ١ / ١٣٨٧ هـ  
وبشرح محمد عبدة / ط ١ / ١٤١٢ هـ / دار الذخائر / قم.

\* \* \*

## الفهرس

٣	مقدّمة المركز
٥	المقدّمة
	التوطئة: سُراق الانتظار بين المسيحيّة والمهدويّة (قراءة في سرقة المعنى المقدّس)
١١	
٣١	كلمة إلى القارئ قبل الدخول
٤٣	الفصل الأوّل: فلسفة الرجاء (المخلّص في ضمير الإنسان)
٤٥	الرجاء كجوهر في بنية الوعي الإنساني
٤٥	الرجاء بوصفه دليلاً على توق العقل إلى الكمال
٤٦	المخلّص كضرورة عقلية لا كخرافة وحلم وهمي
٤٧	الرجاء بين الإيمان والتكليف
٤٨	البنية النفسية للانتظار
٤٨	الظهور كتحقّق للوعد الإلهي في التاريخ
٤٩	العدالة المؤجّلة كحجّة العقل
٥٠	التكامل بين الغيب والعقل في فلسفة الرجاء
٥٠	الرجاء كقيمة حضارية
٥١	الانحراف عن فلسفة الرجاء

٢٢٠	..... سُراقُ الانتظار
٥١	خاتمة الفصل.. الرجاء كوعي بالعقل والمصير .....
٥٣	الفصل الثاني: من العقيدة إلى التنظيم (متى يبدأ الانحراف؟) .....
٥٥	تمهيد.. حين تتحوّل الفكرة إلى قفص .....
٥٦	منطق الانحراف.. احتكار الغيب وتحويله إلى سلطة .....
٥٦	سيكولوجيا المؤسّس.. الكاريزما حين تتغذّى من الفراغ .....
٥٨	سيكولوجيا المريد.. الحاجة إلى الأب الروحي .....
٥٨	اللغة والرمز.. صناعة عالم موازٍ .....
٥٩	إدارة العزلة.. اقتصاد المعلومات والدوائر المغلقة .....
٦٠	غسيل الدماغ.. تفكيك الإرادة ثم إعادة بنائها .....
٦٠	النصّ الدينيّ كأداة.. من التذكرة إلى التبرير .....
٦١	نقد دعوى الاتصال بالغيب.. حدود التجربة وواجب البرهان ....
٦٢	اقتصاد الولاء.. المال والوقت والجسد .....
٦٣	النساء والفئات الهشّة.. حين تُستعمل الرحمة قناعاً .....
٦٣	أثر التنظيم السريّ على النسيج الاجتماعي.. صناعة العالم الموازي .
٦٤	البرهان العقلي ضدّ السريّة.. الغيبة امتحان العلن لا ذريعة الخفاء .
٦٤	تحويل الانتظار إلى مشروع سلطة.. من الرجاء إلى الاستعباد .....
٦٥	معالم المناعة.. العقل التوقيفي والمرجعيّة العلنيّة .....
٦٦	خاتمة.. استعادة الفكرة من يد البنية .....
	الفصل الثالث: هندسة السيطرة (غسيل الدماغ وإدارة الوعي في
٦٩	التنظيمات المهدويّة السريّة) .....

الفهرس.....	٢٢١
القسم الأول: فلسفة الاتصال الخاص وهيمنة القداسة .....	٧١
القسم الثاني: البنية الداخلية للتنظيمات المهديّة.. من الدائرة إلى المركز العقائدي.....	٧٨
الفصل الرابع: هندسة العزلة (من الجماعة إلى العالم الموازي) .....	٨٧
العزلة حراسة للسرّ .....	١٠٣
الفصل الخامس: نُخبة الغيب (استقطاب الوجاهة الباحثة عن المعنى).....	١٠٩
الفصل السادس: يافطات التمويه وسياسة التكتّم (كيف تبني التنظيمات السريّة جذورها داخل المجتمع المدني؟) .....	١٢١
الفصل السابع: هندسة الولاء (تفكيك البنية النفسيّة والعقليّة لصناعة الطاعة في التنظيمات السريّة التي تستغلُّ قضية الإمام المهدي ﷺ) ..	١٣١
الولاء بين الإيمان والانحراف .....	١٣٣
من الواجبة إلى الوعي.. ولادة الولاء من رحم التمويه .....	١٣٣
الطاعة كإيهام بالسّموّ الروحيّ.....	١٣٤
البنية النفسيّة للانصهار.. إعادة تشكيل الذات .....	١٣٥
من النفس إلى المجتمع.. الضمير الجمعي البديل .....	١٣٦
الشخصيّة المهيّأة للولاء.....	١٣٧
القائد والرمز والطقس.. هندسة القداسة .....	١٣٨
تفكُّك الولاء.. حين يُؤلّد السؤال .....	١٣٩
العقل مساحة مقاومة .....	١٤٠
أثر هندسة الولاء في المجتمع .....	١٤١

.....	٢٢٢	سُرَّاقُ الانتظار
١٤١.....		استعادة الإرادة والوعي الاجتماعي
١٤٢.....		خاتمة الفصل
		الفصل الثامن: نائبُ الإمام وصناعةُ الطاعة (دراسة تحليلية في جماعة
١٤٥.....		اليمني أحمد الحسن ونُسَخها العالمية)
		الفصل التاسع: العدالة المؤجَّلة (كيف تحوّل الانتظار من رجاءٍ إنسانيٍّ
١٥٥.....		إلى هندسةٍ للوعي؟)
١٦١.....		العزلة الممنهجة.. من الطاعة إلى الانغلاق
١٦٤.....		استعادة الوعي المهدوي الصحيح
١٦٤.....		أولاً: تطهير المفهوم من الوسائط الزائفة
١٦٤.....		ثانياً: إعادة توجيه الانتظار نحو العمل
١٦٥.....		وثالثاً: تحصين الإيمان بالرجاء لا بالخوف
١٦٥.....		الوعي المهدوي في الأمة.. وعدٌ لا يُحتَطَف
١٦٦.....		خاتمة الفصل.. الرجاء الذي لا يموت
		الفصل العاشر: تحرير العقول المخطوفة (من الاستلاب إلى العودة
١٦٧.....		الآمنة للمجتمع)
		الفصل الحادي عشر: العقل الفقهي وصيانة المعنى (المرجعية الدينية
١٨١.....		كجهاز توازن معرفي)
١٨٨.....		المرجعية في مواجهة مدّعي الاتصال بالغيب
١٩٠.....		آلية حماية المرجعية للدين
١٩٥.....		الارتباط بالمرجعية.. الضمان الأخير لحماية الدين من الاختطاف

الفهرس.....	٢٢٣
الفصل الثاني عشر: مركز الدراسات التخصصية في الإمام المهدي <small>عليه السلام</small> في النجف الأشرف (البناء العلمي للمعرفة المهدوية وضبط المفهوم) .....	٢٠٣
تمهيد.....	٢٠٥
الحاجة إلى مؤسسة تحليلية متخصصة .....	٢٠٦
المنهج العلمي في إنتاج المعرفة المهدوية.....	٢٠٨
١ - التحقيق النصي الحديثي.....	٢٠٨
٢ - التحليل الدلالي واللغوي.....	٢٠٨
٣ - التحليل التاريخي والاجتماعي .....	٢٠٨
٤ - التحليل النظري العقلي والمنطقي.....	٢٠٩
الوظائف العلمية والبحثية .....	٢٠٩
١ - التحقيق والنشر العلمي .....	٢٠٩
٢ - رصد الظواهر الفكرية والاجتماعية .....	٢١٠
٣ - تحليل الانحرافات الفكرية.....	٢١٠
٤ - التأهيل العلمي والبحثي.....	٢١٠
٥ - التعاون العلمي والمؤتمرات .....	٢١٠
٦ - الرصد الإعلامي للخطاب المهدوي .....	٢١٠
المصادر والمراجع .....	٢١٧
الفهرس .....	٢١٩